
قتلة
عبر التاريخ
دعوة صادقة لحقن الدماء
وأخذ العبرة من التاريخ
بقلم
مروان الغوراني
الدار العالمية للنشر والتوزيع

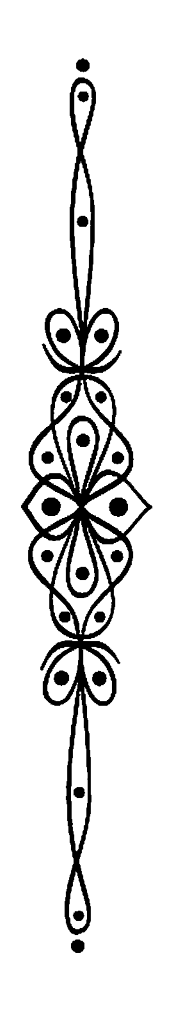
# قتلة عبر التاريخ

دعوة صادقة لحقن الدماء وأخذ العبرة من التاريخ

بقلم
مروان الغوراني




31 ش الصالحى - محطة مصر - الإسكندرية
تليفون : 002034970370 - فاكس: 002033907305
محمول: 01005406403
E-mail: alamia_misr@hotmail.com



# قتلة

## عبر التاريخ

# قتلة

## عبر التاريخ





الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

رقم الإيداع

٢٠١٤/١٩٨٦٧م

الترقيم الدولي: I.S.B.N 978-977-744-041-7



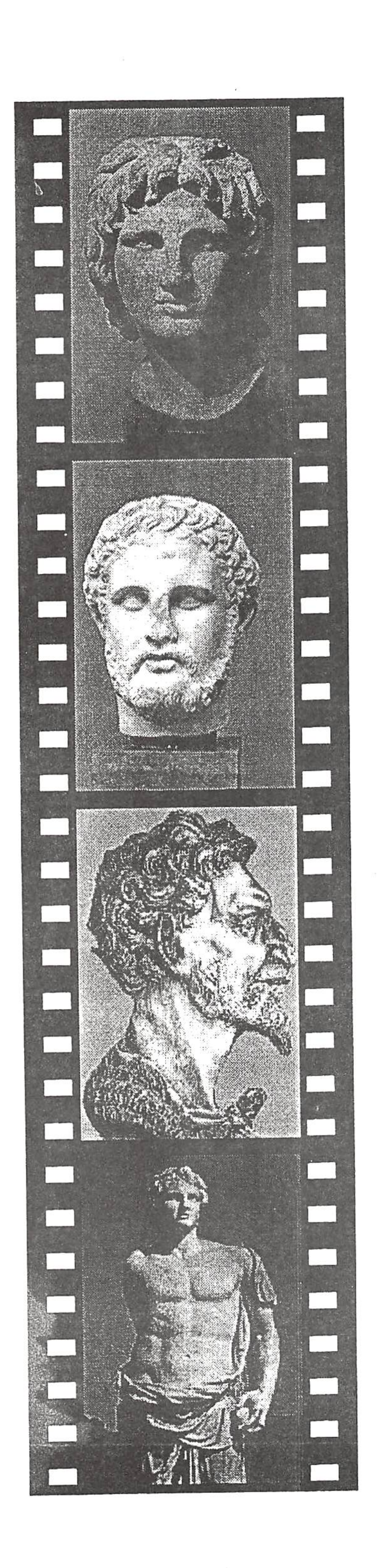


الدار العالمية للنشر والتوزيع

ص.ب: ٦١٠ ر.ب: ٢١١١١-٣١ ش الصالحي-محطة مصر - الإسكندرية

محمول: ٠١٠٠٥٤٠٦٤٠٣ ٢+/ ت: ٤٩٧٠٣٧٠ ٢٠٣+/ تلفاكس: ٣٩٠٧٣٠٥ ٢٠٣+

*E-mail: alamia_misr@hotmail.com*



# قتلة

## عبر التاريخ

دعوة صادقة لحقن الدماء
وأخذ العبرة من التاريخ

بقلم
مروان الغوراني



الدار العالمية للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة: ٣٢).

صدق الله العظيم

**ه الأبطال ليسوا هم الذين يكسبون الحروب مهما تكن عادلة؛ بل الأبطال من يربحون السلام ..**

**وليس ثمة حرب عادلة ...**

**منشيس**

**فيلسوف صيني**

# الإهـــداء

إليكم يا من تملكون مقاليد الأمور ...

وتستطيعون التحكم بالبلاد ورقاب العباد ...

وتمسكون بأصابعكم مفاتيح السلم والحرب ...

وإليكم أيضًا يا من تُستخدمون كأدوات لتنفيذ مآرب مثيري الحرب ...

إليكم جميعًا أهدي هذا الكتاب ...

*مروان الغوراني*

# المقدمة

هذا الكتاب صرخة ألم نازف من شرايين الحب المغَيَّب في هذا العالم، والذي حُكم عليه بالإعدام .. صرخة أُطلقها ملء فمي .. صرخة أطلقها من قلب يحمل الحب والخير للجميع. آملًا أن تحرك الضمائر النائمة، وتنبه العقول الشاردة، وتجلي صورة الإنسان داخل بعض الصدور، التي يعشش داخلها حب القتل صرخة تناشد بني البشر تناديهم تستعطفهم، تحذرهم، تنبههم: أن أوقفوا القتل .. أجل أوقفوا القتل .. كفى!..كفى!.. لقد تخضبت الأرض بدماء لا حصر لها، ولا كيل، وسالت دموع لو جمعت لشكلت عيونًا وأنهارًا.

لقد شُوِّهت الإنسانية، ولُطِّخت بسواد الأحقاد، والكراهية، ومرغ أنفها بالتراب المخضب بالدماء بعد أن أزكمته رائحة القتل والموت، وأصبح ناظمها، وقانونها شريعة الغاب بل للأسف لعل شريعة الغاب قد تكون أرحم وأقرب للعدالة مما يفعله بعض البشر فيما بينهم، ففي الغاب يأكل القوي الضعيف، ولكن بغية استمرار بقائه على قيد الحياة، ولم يُشاهَد حيوان يومًا يصطاد حيوانًا آخر لمجرد اللهو أو التسلية، أو لممارسة هواية الصيد، أو لحقد يحمله في نفسه أو كراهية أو رغبة في توسع أو محاولة في ترؤس أو قيادة أو في محاولة الاستيلاء على ممتلكات الغير. إنما يقوم بعملية الصيد هذه عندما يعضه الجوع.

أما نحن بني البشر فإننا لا نتورع عن قتل بعضنا لأتفه الأسباب، وتحت أسماء ومسميات كثيرة، وقد تقوم حروب لا تُبقي، ولا تذر، ويموت فيها آلاف البشر من أجل مصالح وأطماع دنيئة لا تستأهل أن يراق من أجلها قطرة دم واحدة، وقد يموت الآلاف بل مئات الآلاف في قتال مستميت من أجل دفاع عن كرسي حكم، أو في طلب ذلك الكرسي الذي أغرى ويغري الكثيرين .. مع أن الحقيقة الدامغة أن هذا الكرسي لم يدم لأحد، ولن يدوم، ومع ذلك حين ننظر عبر التاريخ نرى كيف استمات الكثيرون من أجل الاحتفاظ بهذا الكرسي لئلا ينتقل لغيرهم أو بذلوا الغالي، والرخيص في سبيل

الحصول عليه، وربما ضحوا بآلاف البشر، وكأنهم يضحون بقطيع من الخراف، دون أن يرف لهم طرف، أو يشعروا بتأنيب ضمير .. ولو افترضوا مرة واحدة أنهم لم يكونوا هم الآمرين بالقتل، بل كانوا من ضحاياه، فما يكون موقفهم؟ ثم إنهم يصدرون الأمر بالقتل فينفذ مرؤوسوهم ما أُمِروا به.

ولسان حالهم يقول: أنا عبدٌ مأمور .. من غير أن يدركوا أن العبودية لا تكون إلا لله وحده، ومن غير أن يدركوا أن رؤساءهم هؤلاء هم أول من يتبرأ منهم أمام الله تعالى يوم يقوم الحساب، ومن غير أن يدركوا أو يفهموا قول رسول الله ﷺ خالد الذي يشكل قاعدة لضبط العلاقات بين الناس: «لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق»، هذا الحديث الشريف الذي لم يذكره للقتلة، وآمريهم أيٌّ من علمائنا على طول العالم العربي وعرضه، كي يتنبَّه الناس على شدة جهلهم بدينهم، وعدم وعيهم لما ينتظرهم في آخرتهم من سوء المصير.

ذلك ما دفعني إلى كتابة هذا الكتاب، وخاصة وأنا أرى في هذه الأيام العصيبة من تاريخنا المعاصر كيف استحرَّ القتل وانتشر في بلادنا العربية والإسلامية، بعد ذلك الربيع المزعوم الذي أسموه الربيع العربي، فها نحن اليوم نعيش الفوضى الخلاقة التي خطط لها الغرب لنا بعناية، فغرقنا في مستنقعها الآسن، وراح بعضُنا يقتل بعضًا، وأخذنا ندمر بلداننا بأيدينا، وما كنت أحسب بلادنا ستنزلق إلى هذه الهاوية المخيفة؛ وذلك لأنني كنت أحسب أن شعبنا قد بلغ من الوعي الحضاري، والرقي العقلي والثقافي ما جعل عنده حصانة، ومناعة من الانجراف إلى تلك الهاوية التي فيها دماره. إن ما يفتت الكبد ويقطِّع نياط القلب ما نراه اليوم من تدمير لأهم إقليمين في التاريخ الإسلامي الشام التي كانت قاعدة خلافة الأمويين، والعراق الذي كان قاعدة خلافة العباسيين لماذا استُهدفتا بهذا الشكل الدموي التدميري ...؟ لابد أن هذا الأمر قد دبر له بليل، أو لعله دبر له في وضح النهار لكن غشاوة غطت أعيننا، بل ولعلها غطت عقولنا أيضًا جعلتنا نتدحرج

بل ونهوي إلى الدركات السفلى لوادي القتل والموت، فرُحنا نفني بأيدينا أنفسنا، وأوابد حضارتينا الأموية والعباسية، والعالم يتفرج علينا بل يذكّي نار الفتنة فيما بيننا لنكون جميعًا أثرًا بعد عين.

كم هو جدير بنا أن نزيل تلك الغشاوة التي غطت أعيننا وخمّرت عقولنا، فنوقف القتل، والتدمير مباشرة، وبلا تلكؤ لنعود أخوة متحابين، فإن اقتتالنا هذا لا يخدم؛ إلا أعداء الإنسانية، ولا يثلج قلوبًا غير قلوبهم المليئة بالحقد والكراهية .. قلوبهم المليئة بالطمع، والجشع وعقولهم التي تخطط لإفناء الآخر، وإبادته لتتمكن من القضاء عليه والاستيلاء على أرضه وثرواته، ولقد اختلفت اليوم خطة أعداء الإنسانية في الاستيلاء على مقدرات الشعوب بعد أن كانوا يستخدمون الاستعمار المباشر، والجيوش الجرارة راحوا اليوم ينزعون إلى أسلوب جديد مبتكر، وهو عملية الإفناء الذاتي .. أي: أن نفني أنفسنا بأيدينا، وبذلك نكون قد حققنا لهم جميع مآربهم وطموحاتهم من غير أن يخسروا شيئًا، ومن غير أن يتعبوا أنفسهم بتجييش جيوش ودخول حروب قد يخسرون فيها الكثير .. فضلًا عن أننا نكون قد أسهمنا في تشغيل معامل أسلحتهم التي نشتري منتجاتها لنقتل بها أنفسنا، فننمي بذلك اقتصادهم، وقوتهم، ونزيدهم تخمة .. وأنا بدوري هنا أنادي من أسميتهم أعداء الإنسانية إلى أن يكونوا أصدقاء الإنسانية لا خصومها بل وأن يستعيدوا إنسانيتهم المهمشة .. أدعوهم أن يمدوا يد الحب، والأخوة للجميع ليعيشوا هم، والعالم أجمع بسلام، فقد علّمنا التاريخ أن ليس بعد القوة إلا الضعف، وأن سُدّة قيادة العالم تتناوبها الأمم أمة بعد أمة، وليست حكرًا على أمة بمفردها.

لقد تكلمت في هذا الكتاب عن نماذج لشخصيات عدة عاشت في الأزمان الغابرة ونقشت أسماءها على صخرة التاريخ بسيوفها ورماحها، ولونتها بلون الدم المسفوك.

لقد قامت تلك الشخصيات بأعمال القتل، والتخريب، والتدمير، وكانت دوافعها وأهدافها للقيام بهذا العمل متفاوتة، ومختلفة لكن النتائج عندها جميعًا كانت واحدة وهي قتل الإنسان، وإبادته وتخريب دياره، والاستيلاء على مقدراته، وثرواته، واستعباد من بقي على قيد الحياة.

كان الله تعالى: يعلم هو وملائكته طبعَ سفك الدماء عند الإنسان منذ خلقه، إلا أنه أراد من هذا الإنسان أن يضبط هذه الغريزة الشاذة المنحرفة فيه إلى درجة التلاشي، حتى يستأهل عودته إلى جنة الخلد التي كان الله تعالى يعلم أن هذا الإنسان سيخرج منها بسبب طمعه أو طموحه، فرسب في الامتحان الأول، ويبدو أنه على وشك الرسوب في الامتحان الثاني؛ ليُحرَم إلى الأبد من رحمة الله، وتمتلئ جنبات جهنم بأفراده، وهي تقول هل من مزيد ؟!..

لقد مُلِئ التاريخ بالظلم ـ كما هو الشأن اليوم ـ نتيجة الأطماع والأحقاد، ولقد وَجدت أن الهدف الرئيس الجامع الذي تنضوي تحته أغلب مآسي هذا العالم هو، وبكل بساطة لأعش أنا في رغد ورفاه، وليمت غيري أو ليذهب إلى الجحيم إن لم يكن عبدًا لي، وكان وراء كل ذلك هذا الثالوث المشؤوم كله أو بعضه (الملك، والمال، والنساء)، هذا الثالوث الذي عُرِض على رسول الله ﷺ، وهو في مهد دعوته، ظنًّا من المشركين أنه إنما يسعى إلى الوصول إليه أو إلى بعضه، فأبى عرضهم، وقال قولته المشهورة التي لم يفهم المسلمون حتى اليوم مغزاها.

لقد ركَّزت في هذا الكتاب على دراسة تلك الشخصيات التي استحضرتها من التاريخ، وقمت بدوري ـ ضمن الأبحاث ـ بالتعليق على الأعمال المشينة التي قامت بها تلك الشخصيات. عسى أن نتخذ من ذلك عبرة ندرأ بها عن أنفسنا، وعن أمتنا، وعن العالم أجمع هذا الشر، المحدق عسى أن يتوقف سفك الدماء، وإزهاق الأرواح بغير الحق.

ما أحرانا نحن، بني البشر، أن نرقى إلى مستوى إنسانيتنا، فلا يظلم بعضنا بعضًا، ولا يعتدي أحدنا على الآخر، وليرضَ كل منا بما قسمه الله له، وليطور نفسه وقدراته ليلحق بركب الحضارة إن كان متخلفًا عنها، وليُحسِّن عيشه وحياته من غير اعتداء على أرواح الغير أو ممتلكاتهم. بل كم هو حري بالقوي أن يمد يد العون، والمساعدة إلى الضعيف لينتشله من آبار التخلف، والجهل، والحرمان ليلحقه بركب الحضارة، فيجعله يعيش كما يليق به كإنسان، وبذلك تتحقق إنسانية كلا الطرفين القوي والضعيف .. كم هو محزن أن نتسابق في التسلح، ونطور أدوات القتل والتدمير، وننسى تطوير وشائج العلاقات الإنسانية.

إن ما يُصرف في أيامنا هذه على تصنيع الأسلحة وتطويرها، وتحديثها كافٍ لإشباع جميع البطون الجائعة في هذا العالم بل ورفع مستوى أصحابها التعليمي والصحي والحضاري أيضًا ليعيشوا بسعادة أصحاء أقوياء كأمثالهم من بني البشر. لكن للأسف لقد بات واضحًا بأن الحضارة المعاصرة على الرغم من كل هذا التقدم العلمي، والتقني الهائل لم تحقق المقاصد، والغايات الضامنة للإنسان كرامته، وسعادته بل عملت على تشييء الإنسان وسحقه: فكانت بامتياز حضارة مادة بلا روح.

إذن لابد من انتهاج أسلوب جديد يضمن للإنسان كرامته، وحقه في حياة حرة كريمة تحقق له السعادة والهناء.

تعالوا لنبسط الأمور، وننظر إليها على الشكل التالي: إن الخيرات الموجودة على سطح هذه الأرض، وفي باطنها تكفي جميع الكائنات الحية الموجودة على سطحها لتعيش في بحبوحة ورغد عيش، فما الداعي لأعتدي عليك بُغية أن أنتزع منك لقمتك أو تعتدي علي لتنتزع مني لقمتي؟ لماذا لا تقنع بلقمتك وأقنع أنا بلقمتي؟ وما الداعي لأن أعتدي عليك لأخذ أرضك، واستعبادك ..؟ أو أن تعتدي علي لأخذ أرضي واستعبادي ...؟

تعال أنت، وأنا لنتقاسم خيرات هذه الأرض بيننا بما يلبي حاجتك، وحاجتي فنعيش جميعنا بمستوى معاشي جيد ومعقول؛ لأنه ليس من المنطق، ولا العدل أن يتخم أحدنا بما لذَّ وطاب ويستحوذ على كل شيء لنفسه بأنانية مفرطة، ولا يترك للآخر؛ إلا الفتات ..؟ وقد لا يتركه ..! فلا يجد الآخر ما يسد رمقه .. ! بل وقد يموت من الجوع ..!.

أقول: عندما تقتنع أنت أولًا، وهو ثانيًا، وأنا ثالثًا نستطيع جميعًا أن نشكل اتحادًا عالميًا قائمًا على الحب، والإيثار، والتضامن الاجتماعي .. عندما تحبني من كل قلبك، كما أحبك ستؤثرني على نفسك، وأؤثرك على نفسي .. وهذا ما يحث عليه التشريع الإلهي .. وهذا ما كان يطمح إليه الفلاسفة على الأرض حين فكَّروا، ونظَّروا للمدينة الفاضلة .. ويومَئِذٍ سنعلي الصوت جميعًا، وننشد نشيد الحب، ونردد بملء أفواهنا: نعم هذا هو الإنسان ... وهؤلاء هم بنو البشر..لا أحب أن أُنظِّر أو أحاول وضع نظريات جديدة في الاقتصاد والاجتماع، وإنما كل ما أرمي إليه هو الابتعاد كل البعد عن أعمال القتل والتخريب، وأذية الآخر ليعيش الجميع بسلام.

كم هو جميل أن يعمر الحب القلوب ..! كم هو جميل أن نلغي كلمة قتل من قاموسنا الإنساني .. كم هو جميل أن يحقق الإنسان إنسانيته، ويرقى إلى مستوى رفيع شفاف يليق به كإنسان، فلا يعتدي على أحد، ويرعى ويعطف على من هو أضعف منه، ما أجمله من إنسان عندما يتجنب المرور بجانب هِرَّة تأكل أو تشرب، أو كلب يجلس في الظل أو عصفور ينقر الأرض بمنقاره الصغير بحثًا عن طعامه، ما أجمل هذا الإنسان عندما يتجنب المرور بجانب تلك المخلوقات، وغيرها حتى لا يفزعها، ولا ينفرها ما أجمله من إنسان عندما يمشي في حقل ما يحاذر أن تطأ قدمه نملة لأنه موقن أن تلك النملة لها حق الحياة في قريتها، ومسكنها كحقه هو في الحياة ..!

يكون العالم سعيدًا عندما يتحقق العدل، ويعم الخير بين بني البشر، ويبسق الحب ليعمر النفوس عند ذلك سيسود الكونَ السلام.

**وإليكم يا أحبتي ... يا من بيدكم مفاتيح السلم والحرب أقول:**

إن أيامنا هذه التي نعيشها اليوم ستصبح غدًا من التاريخ .. لذلك احرصوا أحبتي على كتابة هذا التاريخ بحروف مماثلة للحروف التي كتب بها عمر بن الخطاب، وعمر ابن عبد العزيز، وهارون الرشيد، ولا تكتبوه بالحروف التي كتب بها الإسكندر المقدوني، وأتيلا الهوني، وجنكيز خان، ونيرون ...

أرجو من الله أن تتحقق الفائدة من هذا الكتاب.

وأن تجد هذه الصرخة الآذان الصاغية، والقلوب الواعية.

**مروان الغوراني**
**٢٠١٤/٦/١٤**

# ١ - جريمة ما قبل التاريخ

قال الله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ (المائدة:٢٧-٣١).

صدق الله العظيم

بزغ فجر البشرية عندما وطئت أقدام آدم وحواء الأرض، وراحا يعمرانها بزراعة ورعي، وإنجاب ذرية، فكان يولد لآدم ذكر وأنثى في كل بطن، ولد له في البطن الأول ذكر اسمه قابيل وأنثى اسمها قليما، وقد قال البعض: بأن اسمه قين أو قايين، ومعنى كلمة قايين قنية، وثمرة وقد وردت في الكتابات القديمة في نينوى، وبابل بمعنى من يقتني عبدًا، في البطن الثاني ولد له هابيل، وليوذا وفسر الربيون كلمة هابيل بمعنى البخار الذي يتلاشى سريعًا ويفقد؛ وذلك لأن حياته كانت قصيرة، وفي العربية هبلته أمه أي ثكلته، أما في أكثر الآثار الآشورية فإن كلمة هابيل ترد بمعنى ابن أو ولد من الفعل هَبَلَ وَلَدَ فهابيل بمعنى المولود.

لقد كان قابيل صاحب حرث وزرع أما هابيل فكان صاحب ضرع، يربي الماشية ويرعاها، وقد شرع الله لآدم أن يزوج بناته من بنيه لضرورة الحال؛ إذ كان يولد له في كل بطن ذكر وأنثى، فكان يزوج ذكر هذا البطن لأنثى البطن الآخر، ولما بلغ قابيل الخامسة والعشرين من عمره، وكان هابيل في العشرين طلب هابيل الزواج من أخت قابيل، فأبى عليه ذلك، وقال: هي أختي ولدت معي، وهي أجمل من أختك، وأنا أحق أن أتزوج بها، فأمره أبوه أن يزوجها هابيل فأبى.

كانت قليما توأم قابيل على درجة عالية من الجمال الذي تفتقده ليوذا التي يجب أن تكون زوجًا له، فأراد قابيل أن يستأثر بقليما لنفسه، فأبى آدم ذلك وأشار إليهما أن يقربا قربانًا فمن تقبل منه فهي له. عندها قرب هابيل كبشًا أقرن سمينًا اختاره من أفضل غنمه، وقرب قابيل حزمة سنبل من رديء زرعه، فوجد فيها سنبلة عظيمة ففركها وأكلها، فنزلت نار سماوية بيضاء أخذت قربان هابيل، وذهبت به وتركت قربان قابيل على حاله، فقال آدم: «ويلك يا قابيل رد عليك قربانك»، فقال قابيل: «أحببته ودعوت له فتقبل قربانه ورد علي قرباني».

راح الغضب والغيظ يتفجران براكين في عروق قابيل دنا من هابيل، ولصريف أسنانه صوت رحى، وصب في أذنه كلمة غريبة كالرصاص المذاب، حبلى بجبال من الحقد والبغي: لأقتلنك ...

راح قابيل ينتظر الوقت المناسب لتنفيذ مأربه هذا ففي يوم من الأيام تأخر قابيل في المرعى، واستبطأه آدم فنادى قابيل، وقال له: اذهب وراء أخيك، وانظر ما الذي أخره ..أحس قابيل أن هذا الوقت هو الوقت المناسب لتنفيذ ما كان يرمي إليه، وانطلق طالبًا هابيل، وعندما وجده، قال: «لأقتلنك .. »فرد عليه هابيل:«لئن بسطت إلي يدك لتقتلنني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين»، فطوّعت له نفسه

قتل أخيه فرفع صخرة وشدخ بها رأس أخيه وسال الدم الأحمر حارًا يروي الأرض. ساد سكون رهيب أذهل كافة المخلوقات فهذا أول ابنٍ لآدم طريح على الأرض ينزف الحياة من جسمه .. لقد مات هابيل ..! بل لقد قُتل هابيل وعندما سألت حواء ماذا تعني كلمة قتل أُجيبت أن هابيل اليوم لا يستطيع أن يأكل أو يشرب أو يتحرك .. فقالت: ويلك إن هذا يعني أنه الموت .. أجل إنه الموت ..! لكن هذا الموت ليس الموت الطبيعي الذي جعله الله نهاية كل المخلوقات إنه موت ناتج عن فعل آثم منكر هذا أول قتل، وأول موت على وجه الأرض إنه الجريمة الأولى، وإن قابيل لهو أول من سنَّ القتل على وجه الأرض لذا قال النبي ﷺ: **«ما من نفس تُقتل ظلمًا؛ إلا كان على ابن آدم الأول كِفلٌ من دمها لأنه أولُ من سنَّ القتل».**

وكذلك بين الله في كتابه العزيز عظم هذه الجريمة إذ قال: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة:٣١).

في جبل قاسيون شمالي دمشق مغارة، يقال لها مغارة الدم مشهورة ـ في إحدى الروايات ـ بأنها كانت مسرح الجريمة الأولى، مسرح القتل الأول هناك هُدر الدم الإنساني الأول ظلمًا.

لقد جاء في (التوراة) أن الله تعالى قال: «يا قابيل أين أخوك ..؟ قال: ما أدري ما كنت عليه رقيبًا ..، فقال الله عَزَّوَجَلَّ: إن صوت دم أخيك يناديني من الأرض أنت ملعون في الأرض التي فتحت فاها فتلقت دم أخيك من يدك، فإن أنت عملت في الأرض فإنها لا تعود تعطيك حرثها حتى تكون فزعًا تائهًا في الأرض». فأصاب قابيل ارتجافٌ في كل أعضائه نشأ من مناخس ضميره، وارتياعه من جريمته. لقد شعر قابيل بعظم فعلته

فندم وحمل أخاه على ظهره، ولا يدري ماذا يفعل به حتى أراحت جيفته، ولم يلقه خوف الطيور والسباع التي تنتظر رمي الجثة لتأكلها، فقيض الله له غرابًا يبحث في الأرض ليواري سوءة غراب ميت، فقال: «يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب».

**الجريمة تورث الندم وعذاب الضمير**، وهذا ما اعتمل في صدر قابيل، فحزن آدم على قتل أحد أبنائه، وخسارة الآخر، وحزن الكون معه حتى قيل: إن آدم لم يضحك مدة مئة سنة إلى أن جاء من قال له حياك الله وبياك. إذا كان هذا حزن آدم فكيف بحزن حواء وهي الأم..؟ من العسير علينا أن نستطيع وصفه ..! أما الإنسانية بعد ذلك فقد ملئت بالدماء، والدموع، والشهقات، والحسرات ...

**وفي الختام لابد لنا أن نسأل لماذا قتل قابيل هابيل ..؟** سؤال لابد من محاولة الإجابة عنه وفق المعطيات التي وصلت إلينا، تأملت أغلب النصوص، والروايات، وجدت الأسباب التالية:

- تضخم الأنا الاستئثار، وحب الذات، لقد فضل قابيل نفسه على أخيه وأراد أن يأخذ ما ليس له. أراد أن يأخذ منه قليما.
- فتنه جمال (قليما)، فجرى وراء هواه الذي أطاش عقله.
- الانجرار وراء أوهام ملذات مادية لم يعرف بأنها لحظية، وفانية.
- شعوره بأن أخاه قد فُضل عليه إذ تقبل قربان أخيه، ولم يتقبل قربانه فأكل الحسد قلبه.
- امتلاء قلبه بالحقد مما دفعه للبغي.

**تعال اخي الإنسان:** نتوخى الحذر، ونَبعد عن هذه المنزلقات التي لم تُورث الإنسانية إلا نارًا تصلي القلوب، وتُسكن في الصدور شهقات ألم، ودموع تزرع الدمار، والخراب ليس في النفوس، والعقول فقط بل في الكون بأكمله.

لذا تعال اخي لأضع يدي في يدك لنزرع المحبة فيما بيننا، وننشر الخير، والسلام في هذا الكون. لا أن ندمره ويدمر بعضنا بعضًا، فأعمارنا نحن بني البشر قصيرة جدًّا بالنسبة لعمر الكون، فحريٌّ بنا أن نغتنم كل لحظة فيها لنهذب طباعنا، ونغسل أوضار الحقد، والحسد، والضغينة، والبغضاء، ونفجر ينابيع المحبة، ونعلي راياتها، ونستظل بظلها، ولتكن دماؤنا فيما بيننا حرامًا فتعمر بالحب نفوسنا التي بدورها ستعمر الكون، عندما نفعل ذلك نستطيع أن نقول بحق: إننا حققنا إنسانيتنا، ونستحق كلمة إنسان.

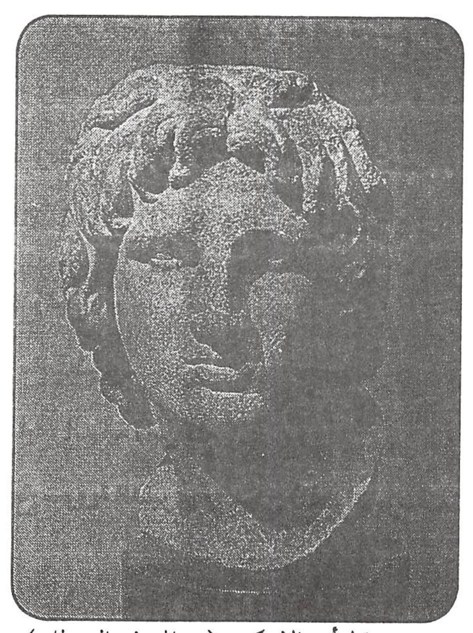
المراجع:

١ـ تاريخ الطبري.

٢ـ البداية والنهاية (ابن كثير).

٣ـ تاريخ سورية الدنيوي والديني (المطران يوسف الدبس).

## ٢ ـ الإسكندر المقدوني


منحوتة لرأس الإسكندر (من المتحف البريطاني)

في جنوب شرق أوربـا هناك في وسط شبه جزيرة البلقان تقع مملكة تدعى (مقدونيا)، ذات طبيعة جبلية، وينتشر فيها الكثير من الهضاب عرفت بكثرة غابات الصنوبر، والبلوط، والـزان في كثير من بقاعها، وخاصة في الغرب منها. هناك في تلك المنطقة وفي مدينة (بيلا) العاصمة، ولد الإسكندر قرابة سنة [٣٥٦ق.م] من والد هو الملك فيليب الثاني الملقب بالأعور، ووالدة هي أوليمبياس ابنة نيو بطليموس الأول ملك إقليم (إيبيروس)، وهي الزوجة الرابعة لفيليب من بين سبع أو ثماني زوجات، ويقال: إنها كانت هي الأثيرة لديه ولو لفترة من الزمن؛ وذلك لأنها أنجبت له ولدًا ذكرًا كما رجح البعض.

هناك أسطورة كان لها تأثير كبير فيما بعد على تفكير الإسكندر توهمه، بأنه يتمتع بطبيعة إلهية تفوق طبيعة البشر، واعتقد هذا أيضًا كثير من الناس.

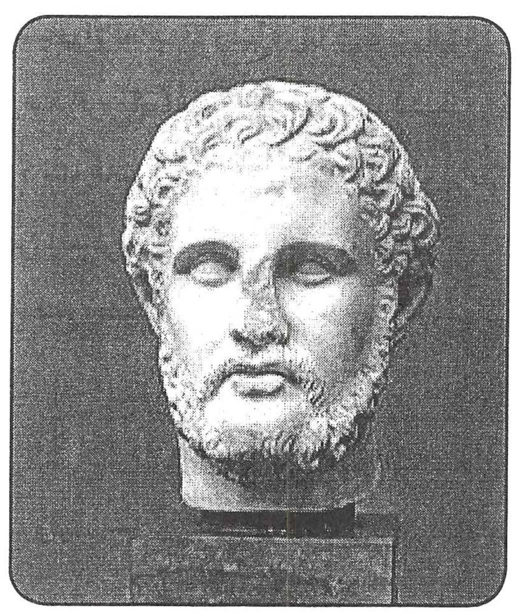
تلك الأسطورة، تقول: بأن حمل أوليمبياس حصل بعد مجامعة كبير آلهة الإغريق زيوس لها فالإسكندر وفق هذه الأسطورة يكون ابن الإله زيوس، ومن الأمور التي قيل إنها حصلت يوم ولادته أن الملك فيليب الثاني صادف أنه كان يحضر نفسه لمحاصرة إحدى المستعمرات، وفي نفس اليوم كذلك تلقى بشرى سارة، وهي أن أحد قواد جيشه وهو بارمنيون قد انتصر على جيش الأليريين والبانيانيين، ودحرهم وردهم على أعقابهم،

وأن خيوله أيضًا قد فازت في سباق الألعاب الأولمبية، وأنه في نفس اليوم احترق هيكل الآلهة اليونانية أرتميس (تدعى ديانا عند الرومان) أحد عجائب الدنيا السبعة[1] في أفسس، وهناك اسطورة، تقول: «إن أرتميس كانت غائبة عن هيكلها لحضور ولادة الإسكندر، ولكي تعين والدته على تحمل المخاض من الممكن أن هذه الأساطير قد برزت عندما تولى الإسكندر عرش المملكة، ونمت مع كل فتح جديد ليظهر أنه قد ولد عظيمًا، وأنه فوق مستوى البشر العاديين).

نشأ الإسكندر نشأة الشباب المقدونيين النبلاء، فتتلمذ على يدي ليونيدس الإيبروسي أحد أقارب أمه، وليسماخوس أحد قادة الجيش العاملين في خدمة والده. لقد تعلم القراءة والكتابة، وعزف القيثارة، وركوب الخيل، والمصارعة، والصيد. في العاشرة من عمره اشترى والده الملك (فيليب) حصانًا، وكان الحصان شموسًا، فلم يستطع امتطاؤه لا هو، ولا أحد غيره، فأمر الملك بذبحه.. لكن الإسكندر تدخل، وطلب من والده أن يحاول هو ترويض هذا الحصان، وكانت المفاجأة أن نجح الإسكندر، وانصاع الحصان له انصياعًا تامًّا.

هذا ما دعا فيليب إلى الابتهاج والتأثر، فقبل ولده ودمعت عيناه قائلًا: «يا بني عليك أن تجد مملكة تسع طموحك إن مقدونيا لصغيرة عليك» افتخر الإسكندر بنفسه وأطلق على حصانه اسم (بوسيفالوس)، ورافقه هذا الحصان طيلة أيام حياته، وفي أغلب حروبه، وعندما نفق أطلق الإسكندر اسم حصانه على إحدى المدن التي أسسها، وهي مدينة (بوسيفلا) التي كانت واقعة شرق نهر السند.

(١) ١ـ عجائب الدنيا السبع الهرم الأكبر في الجيزة بمصر.
٢ـ حدائق بابل المعلقة، في العراق.
٣ـ هيكل آرتميس في أزمير بتركيا.
٤ ـ تمثال زيوس في أولمبيا باليونان.
٥ـ ضريح موسولوس في بودروم بتركيا.
٦ ـ تمثال رودس في رودس باليونان.
٧ ـ منارة الإسكندرية في الإسكندرية بمصر.

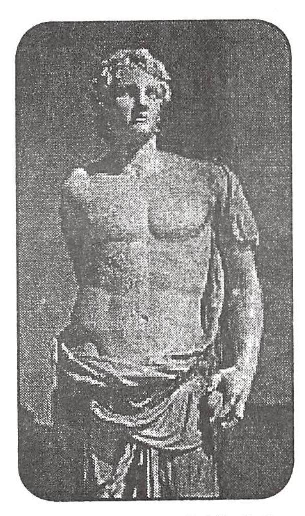


الملك فيليب (والد الإسكندر)

في الثالثة عشرة من عمره اختار له والده العالم أرسطو من بين العلماء ليعلمه الطب، والفلسفة، والأخلاق، والدين، والمنطق، والفن هو ورفاقه الذين أصبحوا فيما بعد رفاق دربه.

أهمهم بطليموس، وهفستيون، وكاسندر وآخرون، ولقد أعجب الإسكندر بأعمال هوميروس، وخاصة الإلياذة، مما دفع أرسطو إلى أن يقدم له نسخة مشروحة حملها الإسكندر معه في كل حملاته العسكرية. في السادسة عشرة من عمره أنهى تعليمه، وتزامن هذا مع مغادرة والده فيليب مقدونيا ليشن حربًا على بيزنطة، فترك شؤون الحكم لولده الشاب بصفته وليًا للعهد، لكن حداثة سنه أغرت بعض القبائل بالثورة .. مما جعل الإسكندر يرد عليهم ردًا قاسيًا، ويجليهم عن مناطقهم، ويوطن إغريقا بدلًا منهم، ويؤسس مدينة أسماها (ألكساندربولس) أي: مدينة الإسكندر، وعندما عاد والده أرسله أيضًا لإخضاع الثورة التي قامت في تراقيا، وبعد ذلك قام بمشاركة والده في العديد من المعارك في الأراضي اليونانية التي كللت جميعها بالنصر.

أنشأ فيليب الرابطة الهيلينية التي ضمت جميع المدن الإغريقية عدا إسبرطة استنبول، وبذلك استطاع الملك فيليب توحيد صفوف جميع بلاد اليونان.



تمثال الإسكندر من متحف



تمثال رأسي للإسكندر

**الإسكندر ملكًا:**

في عام [٣٣٦ق.م] توجه الملك (فيليب) إلى إيجه لحضور حفل زفاف ابنته كليوباترة، فاغتاله قائد حرسه الشخصي المدعو (بوسانياس الأورستيادي)، وانطلق هاربًا باتجاه بوابة المدينة لكنه تعثر بحبل كرمة، فأمسك به ملاحقوه وقتلوه فورًا، وكان من بينهم اثنان من أصحاب الإسكندر، وهما: (بيرديكاس وليوناتوس) بويع الإسكندر ملكًا على عرش (مقدونيا)، وقائدًا عامًّا لجيشها، وهو لم يتخط بعدُ العشرين من عمره.

**أول عمل قام به:** هو تصفية خصومه الذين من الممكن أن يكونوا منافسين له على العرش، فأعدم ابن عمه (أمينتاس الرابع) الذي كان يدعي أحقيته بالعرش، وأعدم أميرين مقدونيين آخرين، وعفى عن ثالث، وقتل عمًّا لكليوبترا ـ الزوجة الأخيرة لفيليب ـ حين حاول الانشقاق عن الجيش المقدوني، وقتل أتالوس الذي كان قائدًا

لحرس الحدود في آسيا الصغرى، كذلك أمرت أمه أوليمبياس بإعدام كليوبترا، وابنتها يوروبا التي أنجبتها منه فأحرقتا حيتين.

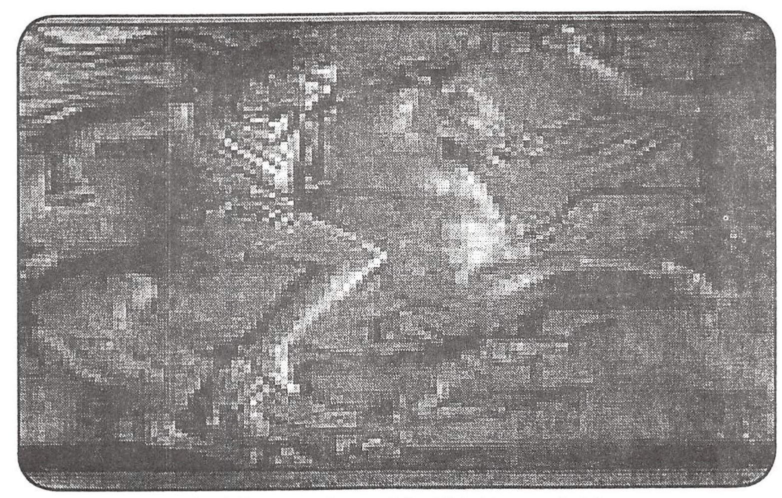
إذن بدأ الإسكندر بتوطيد حكمه فحسم الأمور بالقتل، والدم، ولم يمارس الحلول الوسط من حوار ودبلوماسية، ولا حتى السجن المؤقت لمخالفيه، بل سعى إلى إقصاء الآخر إقصاء نهائيًا لا عودة له بعده.

كذلك قام الإسكندر بالقضاء على الثورات التي قامت ضده بعد مقتل أبيه، في كل من طيبة، وأثينا، وثيساليا، والقبائل التراقية في شمال المملكة، وأجرى بعض المعاهدات التي نصت على الاعتراف به، وبملكه.

كما قد خُلع عليه لقب القائد الأعلى للرابطة الهلينية، وعين خلفًا لوالده في قيادة جيوش بلاد اليونان كلها في الحرب القادمة مع الإمبراطورية الفارسية.

انطلق الإسكندر بجيشه باتجاه الحدود الشمالية للمملكة حيث قام بإخضاع ممالكها بحد السيف، وأثناء انشغاله بهذه الحروب ثار مرة ثانية (الطيبيون والأثينيون) فاتجه بجيشه جنوبًا نحوهم ليخمد تلك الثورة قبل امتدادها، ولما علموا بقدومه ترددت جميع المدن (اليونانية) في الوقوف بوجهه إلا طيبة التي قررت المواجهة لكن الإسكندر اكتسحها بشراسة، وسوى تلك المدينة بالأرض وقسم أراضيها بين باقي المدن هذا العمل التخريبي كان له أكبر الأثر في نفوس (الأثينيين) مما جعلهم يخافون من أن يصيبهم ما أصاب طيبة؛ لذلك خضعوا لمقدونيا، وهذا كان له أثره في إحلال السلام في جميع بلاد الإغريق، وخلال قيامه بإخضاع تلك البلدان التقى في (كورنث) بالفيلسوف الزاهد الشهير (ديوجين السينوبي)، وكان الإسكندر من أشد المعجبين به، فسأله إن كان له طلب يقدر أن يحققه له، فرد الفيلسوف بازدراء: «تنحَّ قليلًا أنت تحجب الشمس عني» لم ينزعج الإسكندر من هذا الرد بل، قال لأصحابه: «حقًا أقول لكم لو لم أكن الإسكندر

لوددت أن أكون (ديوجين)». بعد أن خضعت للإسكندر بلاد الإغريق تفرغ لحملته ضد الفرس، فجهز الجيش وانطلق شرقًا تاركًا (أنتيباتر)، وهو أحد القادة العسكريين، وصيًّا على العرش.



الإسكندر يقاتل الملك الفارسي (داريوس الثالث)



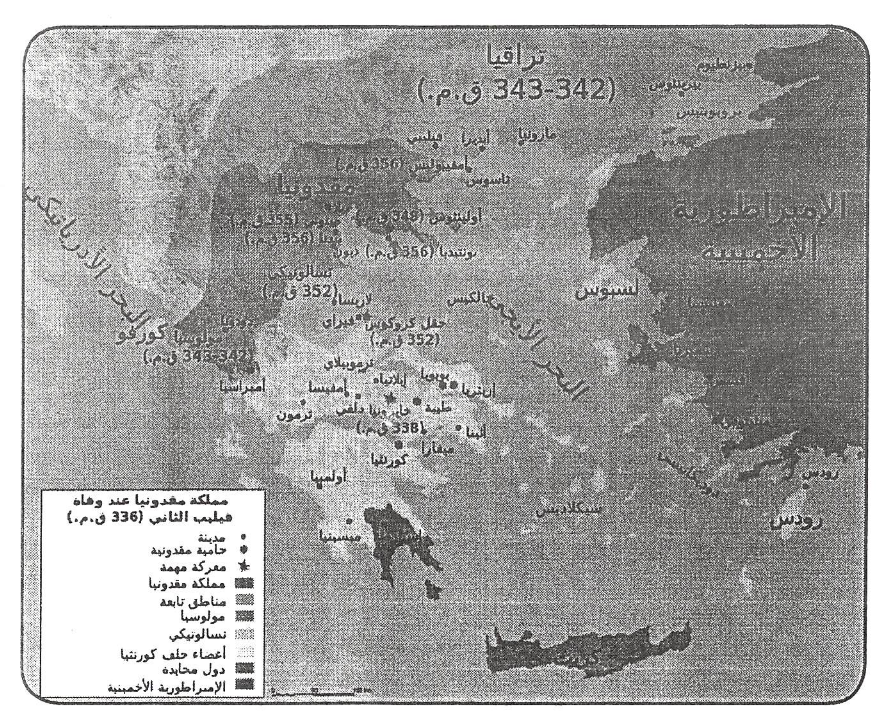
نقود فضة من عصر الإسكندر

**الحرب على الإمبراطورية الفارسية:**

عندما عبر الإسكندر بجيشه مضيق الدردنيل سنة [٣٣٤ق]، ووطئت قدماه اليابسة، غرز رمحًا في البر الآسيوي تعبيرًا عن نيته في غزو كافة أراضي الإمبراطورية الفارسية،

والآسيوية، وقال: «إني قبلت آسيا هدية لي من الآلهة». هذا ما أظهر ميله للعنف، وللحلول العسكرية بينه وبين الفرس راميًا بالحلول الدبلوماسية خلف ظهره وكذلك أظهر، قوله: هذا النوايا الاستعمارية، وأطماعه في احتلال آسيا، والسيطرة عليها، وكان قد أعد لهذه المهمة جيشًا مؤلفًا من (٤٨٠٠٠ جندي مشاة، و٦٠٠٠ فارس، وأسطول مكون من ١٢٠ سفينة على متنها ٣٨٠٠٠ جندي) لتنفيذ تلك الغاية، وذلك الطموح الجامح.

كانت المعركة الأولى بين المقدونيين، وبين الفرس على ضفاف نهر (غرانيكوس) المعروف اليوم باسم (نهر بيكا) عام [٣٣٤ق.م]، هذه المعركة وقعت في أقصى الشمال الغربي من آسيا الصغرى قرب مدينة طروادة الأثرية، حيث انهزم الفرس، وسلموا مفاتيح عاصمة هذا الإقليم (سارد) للإسكندر الذي دخلها ظافرًا، واستولى على خزائنها، وثرواتها، وكانت هذه المعركة هي إحدى ثلاث معارك عظيمة خاضها الإسكندر مع الفرس.




مملكة مقدونيا عام [٣٣٦ق.م]

ثم تابع تقدمه على طول ساحل البحر الأيوني فأسقط إقليم (كاريا)، ودخله عنوة مما أدى إلى هروب كلٍّ من قائد (المرتزقة ممنون الرودسي)، وحاكم الإقليم الفارسي (أراندباد) عن طريق البحر لينجوا بنفسيهما. سلم الإسكندر حكم الإقليم إلى (آدا الكارية)، وهي حاكمة سابقة للإقليم بعد أن أعلنت، ولاءها لمقدونيا، وتبنت الإسكندر رسميًّا حتى يؤول الحكم إليه بعد موتها.

وهكذا انطلق الإسكندر فاتحًا كل المدن الساحلية ليحرم الفرس من الموانئ والقواعد البحرية بعد ذلك انطلق باتجاه عمق الأناضول، وعندما وصل إلى غورديوم سمع بأسطورة العقدة الغوردية حيث تروي تلك الأسطورة: (أن هناك عقدة حبل تربط عربة بوتد، وذلك الحبل لا يظهر له أي طرف، وأن من يستطيع أن يحل تلك العقدة فسيكون هو ملك آسيا الحق) لم يكن من الإسكندر إلا أن استل سيفه، وقطع تلك العقدة بكل بساطة قائلًا: «الصغار هم وحدهم من يفكرون بحل العقدة اقطعها بسيفك، وتنتهي المشكلة».

**دخول بلاد الشام:**

بعد أن فتح الإسكندر العديد من القلاع، والحصون في الأراضي التركية، اتجه جنوبًا باتجاه بلاد الشام، فالتقى بجيش الفرس تحت قيادة الشاه داريوش الثالث في منطقة إسوس، فدارت بينهما معركة حامية الوطيس انشق غبارها في النهاية عن نصر مؤزر للإسكندر، واغتنام كنز عظيم كان الشاه قد حمله معه، وكميات هائلة من المؤن والأسلحة، وفرَّ الشاه ناجيًا بنفسه تاركًا زوجته، وابنتيه يقعن في الأسر. عرض الشاه صلحًا على الإسكندر؛ بأن يحتفظ الأخير بما فتح من بلدان، وأن يطلق سراح عائلته مقابل مبلغ كبير من المال، رد عليه الإسكندر: «بما أنني أنا سيد آسيا، فأنا الوحيد الذي يحق له التصرف بها، ولا يحق لداريوش أو أي كان أن يحدد لي ما أحتفظ به وما أترك».

تخليدًا لهذا النصر الذي فتح أمامه أبواب بلاد الشام التي كانت رازحة تحت الاحتلال الفارسي أنشأ مدينة شمال البلاد على حدود الأناضول دعاها الإسكندرونة. وهنا كان أمام الإسكندر خياران لمتابعة زحفه الأول: متابعة فتوحاته شرقًا في العمق الفارسي، والثاني: أن يزحف جنوبًا لفتح المدن (الفينيقية ومصر) لكنه فضل الانطلاق جنوبًا كي يحتل الساحل الشرقي لبلاد الشام، وبذلك يكون قد أحبط أية محاولة قد يقوم بها الأسطول الفارسي لتحريك اليونان إلى الثورة ضده .

فتح أغلب الساحل السوري ذراعيه لاستقبال الإسكندر كمخلص من الاحتلال الفارسي، لكنه حينما وصل إلى صور اختلف الوضع، وخاصة عندما أراد أن يقدم القرابين لإلهها (ملقارت) حيث أبى الصوريون عليه ذلك؛ إذ كانوا يعتبرون هذا العمل من حقوق ملكهم دون غيره. اعتبر الإسكندر رفضهم هذا إهانة شخصية له مما دفعه للانتقام، وكانت صور حينها مؤلفة من قسمين بري، وبحري.

هاجم القسم البري منها واستولى عليه بسهولة، وأمر جيشه بهدم مبانيها بالكامل وإلقاء أنقاضها في البحر، وكذلك أمر بقطع الأشجار من الغابات لإلقائها أيضًا في البحر كي تشكل جسرًا يربط بين صور البرية، وصور البحرية. لكن ورغم كل تلك الجهود الجبارة التي بذلها الجيش المقدوني في بناء هذا الجسر، وفي إحكام الحصار، فإن الصوريين صمدوا وقاوموا مقاومة باسلة مما جعل الإسكندر يشعر بكثير من الغضب وشيء من الإحباط.

لكنه في النهاية جمع قوة بحرية كبيرة، واستطاع إسقاط المدينة بعد سبعة أشهر من الحصار، وذلك في سنة [٣٣٢ق.م]، وانتقم من أهلها شر انتقام فقتل منهم ستة آلاف وصلب ألفين وسبى ثلاثين ألفًا بعد ذلك زار هيكل ملقارت وقدم القرابين. ثم أقام حفل ألعاب احتفالًا بالنصر الكبير. خضع له كثير من بلدان بلاد الشام دون قتال، أثناء توجهه إلى مصر، ما عدا غزة؛ فإن حاكمها الفارسي لم يرض بالتسليم مما دعا الإسكندر

إلى حصارها، وحاول (المقدونيون) اقتحامها ثلاث مرات متتالية لكن هذه المحاولات باءت جميعها بالفشل؛ وذلك لأن غزة كانت تمتاز بتحصين جيد.

لكن في المحاولة الرابعة نجح (المقدونيون) بعد أن جلبوا أدوات حصار خصيصًا لهذا الغرض، ومن الجدير بالذكر أن الإسكندر قد أصيب بجرح خطير في كتفه، وهذا ما دعاه إلى الانتقام بشكل جنوني من المدينة وأهلها، فقد قام بقتل كافة الرجال القادرين على حمل السلاح، وبيعت النساء والأولاد عبيدًا، وربط قدمي حاكم المدينة بعربة ثم راح يجره تحت أسوار المدينة حتى مات ..

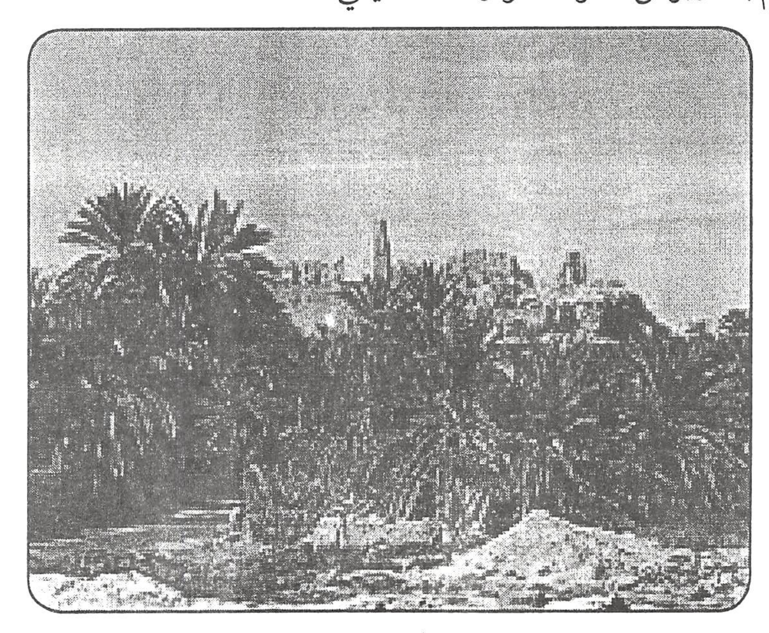
من هاتين الواقعتين في صور وغزة نقرأ أن الإسكندر كان يتصرف بشكل انفعالي وانتقامي إجرامي لقد قام بأعمال القتل، والصلب، والسبي، والتدمير دون رادع من ضمير أو أخلاق كان يعتبر أن أية مقاومة أو عصيان هو تحدٍّ شخصي بالنسبة له لذلك كانت ردود أفعاله انتقامية إلى أبعد الحدود دون ضابط يضبطها. إنها الوحشية بعينها البعيدة كل البعد عن الإنسانية الحقة ... ولنتصور معًا كم من سائل من أهالي تلك البلاد المفجوعة كان يسأل حينها مندهشًا: ماذا يريد منا هذا المقدوني القادم من الشمال ...؟ لماذا جاء إلينا شاهرًا سيفه في وجوهنا ...؟ لماذا يُعمل فينا القتل، والدمار، والخراب..؟ لماذا كلف نفسه كل تلك المشقة، وكل ذاك العناء ليأتي إلينا محاولًا استعبادنا أو إبادتنا..؟!، ونحن نبعد عنه آلاف الأميال ..! ما له ولنا ..؟!.

مر الإسكندر على القدس التي فتحت له أبوابها سلمًا، وتلقى نبوءة من أحبار اليهود هناك: بأن ملكًا إغريقيا عظيمًا سوف يغزو أراضي الإمبراطورية الفارسية، وأن شاه فارس لن يستطيع الوقوف في وجهه، وكان أحبار اليهود يدعمون نبوئتهم تلك بنصوص مبهمة من التوراة يتلونها على مسمع الإسكندر، سُرَّ الإسكندر بهذه النبوءة ومكث فترة زار خلالها هيكل حيرود. ثم تابع باتجاه مصر.

**فتح مصر:**

في خريف [٣٣٢ق.م] دخل الإسكندر مصر، ولم يجد أية مقاومة بل لقد استقبل في منف عاصمة مصر آنذاك استقبال الفاتح المخلِّص من الفرس المحتلين الذين كانوا لا يحترمون دينهم، وعاداتهم الفرعونية ثم أقام مهرجانًا على النمط الإغريقي احتفالًا بهذا النصر، والفتح العظيم.

بعد ذلك قام بتكليف أحد معاونيه ببناء مدينة الإسكندرية التي أصبحت عاصمة مصر فيما بعد أيام البطالمة خلفاء الإسكندر، وانطلق الإسكندر من جديد لكن هذه المرة ليس إلى الحرب، وإنما للقيام برحلة روحية إلى معبد الإله آمون (إله الشمس) المقابل لزيوس عند الإغريق في واحة سيوة، حيث قوبل هناك بالترحاب من قبل الكهنة الذين نصبوه فرعونًا على مصر، وأعلنوه ابنًا لآمون كبير الآلهة المصرية، وألبسوه تاجًا على شكل رأس كبش ذي قرنين، فلقب بذلك (الإسكندر ذو القرنين)، ومنذ ذلك الحين أخذ يزعم بأن زيوس (آمون) هو والده الحقيقي.



بقايا معبد آمون في واحة سيوة

ترك مصر بعد أن نظمها تنظيمًا دقيقًا، ووزع السلطات بالتساوي بين المصريين وبين المقدونيين، ولم يعين حاكمًا مقدونيًّا، بل ترك هذا الأمر للمصريين، بهذا ضمن رضا المصريين وعدم قيامهم بثورات ضده، وهكذا أصبحت مصر ولاية مقدونية فتحت أبوابها للمهاجرين الإغريق، وكانت تلك نقطة تحول في تاريخ مصر أدت إلى التمازج الفكري والثقافي بين الحضارتين، وهذا ما أراده وعبر عنه الإسكندر حين أقام احتفالًا رياضيًّا، وثقافيًّا كرمز للتعاون بين الحضارتين العريقتين حين أرد مغادرة مصر متجهًا بجيشه نحو الشرق.

***ما بين النهرين ومعركة (غوغميلا):***

سار الإسكندر باتجاه بلاد فارس فوصل إلى بلاد ما بين النهرين حيث كان الشاه بانتظاره، وقد جهز جيشًا عظيمًا يفوق تعداده تعداد جيش الإسكندر بأكثر من الضعف وحشده في منطقة سهلية مكشوفة حتى يتمكن من إدخال كافة قواته في آن واحد، وإلقاء كامل ثقله العسكري في المعركة ليشكل تفوقًا عدديًّا، وضغطًا كبيرًا على قوات الإسكندر يؤمن له النصر، اتجه الجيش المقدوني باتجاه ساحة المعركة فوجد الجيش الفارسي مصطفًا بانتظاره، وبين صفوفه العديد من العجلات الحربية، وخمسة عشر فيلًا أحضرت خصيصًا من الهند.

هنا ظهر نبوغ الإسكندر العسكري حين راح يعدو ومجموعة من أفضل فرسانه على موازاة الجناح الأيمن للجيش الفارسي، وحين وجد ثغرة استغلها وانقض باتجاه العمق حيث ترفرف راية الشاه، وتبعه مجموعة من جيشه، فوجئ الشاه (بالمقدونيين) وقد اخترقوا صفوف جيشه، فما كان منه إلا أن ولّى هاربًا هو ومجموعة من قادة جيشه تاركًا جيشه يئن تحت ضربات سيوف جيش الإسكندر. لاحق الإسكندر فلول الجيش الفارسي حتى أربلاء (أربيل حاليًا) رغبة في القبض على داريوش لكنه لم يتمكن من

الإمساك به بسبب عبوره جبال زاغروس، ولجوئه إلى مدينة همدان، بعد ذلك دخل الإسكندر بابل عاصمة الفرس آنذاك، وأعطى الأمان للناس، ومنع أفراد جيشه من أن يقوموا بأعمال السلب والنهب.

**فتح بلاد فارس:**

بعد بابل دخل مدينة (سوسة) إحدى العواصم الأخمينية، واستولى على خزائنها، وبعد ذلك سار بجيشه إلى (برسبوليس) العاصمة الدينية للفرس، فالتقى بجيش صغير هزمه على الفور واستولى على المدينة وخزينتها. ثم سمح لجنوده باستباحتها عدة أيام، ومكث فيها خمسة أشهر بعد ذلك راح يطارد الشاه داريوش الذي خسر كل معاركه مع الإسكندر، وكذلك خسر احترام ضباطه الذين رافقوه مما دفع أحدهم الذي يدعى أردشير ـ ويعرف باسم بسوس ـ بأن يعتقل الشاه ويكبله ويحمله معه أسيرًا إلى آسيا الوسطى، وعندما اقترب جيش الإسكندر منهم أمر رجاله بطعن داريوش طعنة قاتلة، وأعلن نفسه حاكمًا، وانطلق إلى آسيا الوسطى ليجهز نفسه لمقاومة الجيش المقدوني.

مقدمة الجيش المقدوني، وجدت الشاه داريوش يلفظ أنفاسه الأخيرة، وعندما وصل الإسكندر إليه كان الشاه قد فارق الحياة، فغطاه الإسكندر بعباءته، ونقل جثمانه إلى مدافن أسلافه في جنازة مهيبة، واعتبر قاتله بسوس معتديًا، وغاصبًا للحكم، فلاحقه الإسكندر في آسيا الوسطى بغية القبض عليه، ففتح في ملاحقته تلك العديد من البلدان، وأسس عدة مدن أسماها كلها الإسكندرية، وعندما تمكن الإسكندر من بسوس قام بجدع أنفه وقطع أذنيه ثم إعدامه كذلك قام بالقضاء على بعض الثورات التي قامت ضده بقوة وحزم مما جعل الساحة خالية له وحده في بلاد فارس، فاتخذ لنفسه لقب شاهنشاه أي ملك الملوك، واقتبس العديد من العادات والتقاليد الفارسية كتقبيل

اليد والسجود للحاكم. لكن جنوده رفضوا هذه العادة واعتبروا أن الإسكندر قد عظم نفسه لدرجة العبادة، مما اضطر الإسكندر إلى التخلي عن هذه العادة.

اكتشف الإسكندر مخططًا لاغتياله أعد له (فيلوطس بن بارمنيون) لذلك قبض عليه وحوكم على يد مجموعة من الضباط الذين حكموا بإعدامه.

وهذا ما دعا الإسكندر على أن يرسل على الفور إلى والده بارمنيون من يقتله خوفًا من ردة فعله على مقتل ولده، ولقد حدث أمر هام آخر أرّق الإسكندر لفترة طويلة، وهو قيامه بقتل صديقه كليتوس الأسود إثر شجار نشب بينهما عندما كانا مخمورين في جلسة شراب لكنه عندما أفاق من سكرته شعر بندم شديد على ما اقترفت يداه.

**غزو شبه القارة الهندية:**

أرسل الإسكندر إلى زعماء القبائل في إقليم قندهار للمثول أمامه، والاعتراف بسلطانه، استجاب إلى طلبه هذا صاحب مقاطعة تكسيلا لكن شيوخ عشيرة الكمبوجة رفضوا ذلك رفضًا قاطعًا، فما كان من الإسكندر إلا أن اتجه لقتالهم في عقر دارهم في شتاء (٣٢٦/ ٣٢٧ ق.م)، وكانت هذه المعارك شديدة الضراوة وأصيب الإسكندر فيها بسهم في كتفه، ومع ذلك فقد استطاع الانتصار، واقتحم حصن مساغا، ودمره تدميرًا هو وأهله.

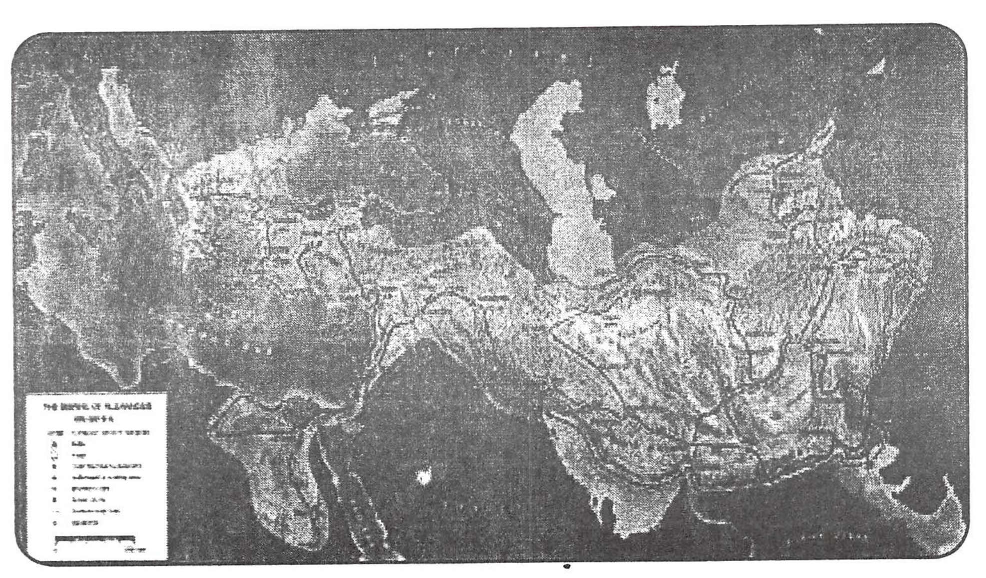
يقول المؤرخ الروماني (روفوس): «لم يكتف الإسكندر بذبح جمهرة مساغا بل أقدم على هدم كل أبنيتها، وجعلها غبارًا منثورًا»، ونشير إلى أن الإسكندر قد أصيب في معركة أخرى بجرح بليغ في كاحله.

ولقد تعرض المحاربون المتحصنون في (أورا) لمذبحة مشابهة لمذبحة إخوانهم في (مساغا)، وتبع الإسكندر الفارين منهم إلى حصن أورنوس وفتحه بعد قتال دام أربعة أيام دموية. بعد هذا النصر سار بجيشه، وعبر نهر السند ليواجه الراجا (بور) صاحب مملكة

بورافة - الواقعة حاليًا في إقليم البنجاب - في معركة رهيبة - سميت معركة هيداسبس - سنة [٣٢٦ق.م]، وقد كانت تلك المعركة من أقسى المعارك التي خاضها الإسكندر وخسر فيها الكثير من جنوده إزاء المقاومة الباسلة التي أبداها الراجا، وبذله كل ما أوتي من قوة في سبيل صد هذا المعتدي الغاشم لكن في النهاية استطاع الإسكندر الانتصار، وهزم الجيش الهندي هزيمة نكراء.

لكن تقديرًا للراجا وبسالته، وشجاعته فقد حالفه الإسكندر وتركه في ملكه وأضاف إليه أيضًا بعض البلدان.

أسس الإسكندر مدينتين متقابلتين على ضفتي نهر جهلم سمى إحداها (بوسيفلا) تيمنًا باسم جواده الذي نفق، والأخرى (نيقيه) أي: النصر.



خريطة امبراطورية الإسكندر

**تمرد جنود الإسكندر:**

بالقرب من نهر بياس شمال الهند رفض الجند متابعة التقدم شرقًا، وهم يسألون أنفسهم إلى أين ..؟ وإلى متى ..؟ كان همهم الأول هو الرجوع، وعدم متابعة التقدم

بالإضافة إلى سبب آخر، وهو علمهم بأن هناك امبراطورين قويتن شرق نهر الغانج لديهما جحافل من الجند، والفرسان المدججين بالسلاح، والفيلة، فقد قيل لهم إن ملوك الهند قد جمعوا لهم ثمانين ألفًا من الفرسان، ومئتا ألف من المشاة، وثمانية آلاف عربة، وستة آلاف فيل ليقتلوهم ويبيدوهم أجمعين، حاول الإسكندر إقناع جنوده لمتابعة الزحف شرقًا لكنه لم يفلح حينها تدخل أحد قادة جيشه متوسلًا أن يعدل عن رأيه ويعود أدراجه قائلًا: «لقد تاق الرجال لرؤية آبائهم، وأمهاتهم، وزوجاتهم، وأولادهم وأرضهم، وأوطانهم»، فاقتنع الإسكندر بكلامه، وأمر جيشه بالعودة. لكنه اختار طريقًا صحراوية أي: سار بجيشه عبر صحراء ميديا الممتدة عبر بلوشستان، ومكران بجنوب باكستان، وإيران حاليًا خسر فيها الإسكندر قسمًا كبيرًا من جيشه حيث مات بعضهم عطشًا، والبعض الآخر مات من شدة الحر، وكأنه كان يعاقبهم على عصيانهم، وعدم تنفيذ رغبته في متابعة التقدم نحو الشرق. لكنه عوقب أيضًا هو نفسه بهذا العبور الصحراوي، فاختلت موازين عقله لشدة ما لاقاه من الأهوال.

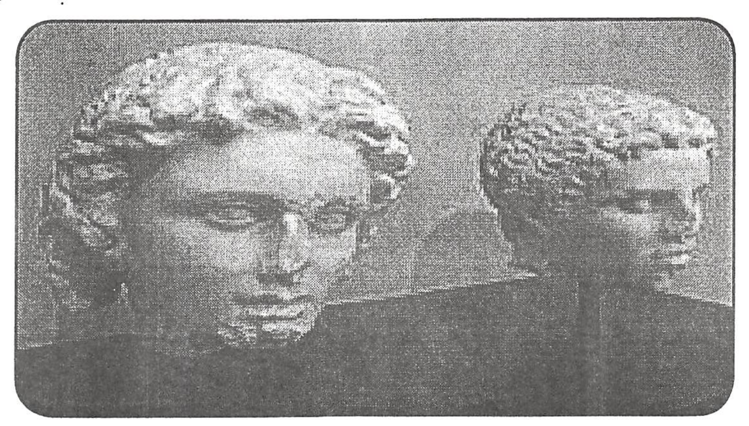
لقد أكد عدد من المؤرخين أن الإسكندر بالفعل قد اختار هذا الطريق الصحراوي ليعاقب جيشه، وأنا هنا أستغرب أن يقوم قائد ما بإفناء هذا العدد الكبير من جيشه في تلك الصحراء القائظة بعد كل تلك السنوات الطوال التي التزم فيها ذلك الجيش الطاعة، وقاسى ما قاسى خلالها من ويلات الحروب، والقتال الدائم والتعرض للأخطار والموت في أية لحظة ناهيك عن الأعداد الغفيرة التي قضت، ودفعت حياتها عبر مسيرة تلك الحروب الطاحنة .. أهكذا يكون الجزاء..؟

وبعد كل ذلك الشقاء الذي كابده الجند .. ، وبعد كل تلك السنوات التي هدرت من أعمارهم في سبيل إرضاء طموح شب أواره في رأسه..، وما كان ليطفئه إلا مياه البحر في أقصى الشرق من الكرة الأرضية، فهو كان يريد الوصول إلى نهاية العالم والبحر الخارجي الكبير.

وصل هذا الجيش المنهك إلى سوسة سنة [٣٢٤ق.م] فوجد الإسكندر أن العديد من حكام الأقاليم قد أساؤوا التصرف في غيابه، فأقدم على إعدام أغلبهم ليكونوا عبرة لغيرهم، وبادر بدفع رواتب الجند ليشعرهم بنوع من العرفان، والتقدير لما بذلوه، وأمر كبار الضباط أن يتزوجوا من أميرات فارسيات كي يوحِّد الصف، ويرأب الصدع بين المقدونيين، والفرس وأقام لهم حفل زفاف جماعي، وشارك ضباطه بزواجه من الأميرة بروشات الثانية صغرى بنات أردشير الثالث إضافة إلى زوجتيه السابقتين رخسانة ابنة وخش آراد أحد نبلاء باختريا بعد أن رآها ووقع في حبها، وستاتيرا الثانية ابنة الشاه داريوش الثالث التي تزوجها لدوافع سياسية محضة، وحبًّا أيضًا في التمازج الحضاري ونشر الثقافة الإغريقية. رفد جيشه بالعديد من أبناء فارس ليكونوا بين صفوفه، ترك الإسكندر سوسة بعد أن رتب أمورها وانطلق إلى همدان فوجد أن الحراس المكلفين بحماية قبر الشاه قورش الكبير قد قاموا بتدنيسه فأعدمهم مباشرة.

يتساءل المرء أليس هناك وسيلة يتبعها الإسكندر مع من خالفوه الرأي أو أساؤوا التصرف أو عصوه إلا القتل ..! أليس هناك عقاب آخر ..؟ أم أن من يرى الدماء تُهرق وهو الآمر باهراقها، وتسيل مرارًا وتكرارًا بإذنه يهن عليه سفكها متى يشاء ولأي سبب من الأسباب ..!

في همدان مرض هفستيون مرضًا عضالًا، وقد أشيع أن أحدهم دس له السم، وكان هفستيون هذا أقرب أصدقاء الإسكندر إلى قلبه، ويقال: إنه كان عشيقه لكن الموت لم يمهله، وسرعان ما اختطفه، وكان لهذا الحدث أثر بالغ في نفسية الإسكندر فقد حزن عليه حزنًا شديدًا، وأمر بتحضير محرقة جثث كبيرة في بابل حتى يحرق جثمانه فيها وأصدر مرسومًا بالحداد العام.



منحوتتان لرأسي الإسكندر (يسار) وهفستيون (يمين)

**وفاة الإسكندر:**

عُرف عن الإسكندر إسرافه في شرب الخمر، فقضى ليلًا بطوله يعاقر الخمر هو وصديقان له حتى مطلع الفجر، ويقال: بأنه قد احتسى طاس خمر صرف على شرف هرقل. بعد ذلك أصيب بحمى قوية راحت تتفاقم حتى أضحى عاجزًا عن النطق قلق عليه جنوده فأُذن لهم بالسلام عليه وكان يرد عليهم السلام بالإشارة، ففي قصر نبوخذ نصر ببابل مات الإسكندر يوم (العاشر من حزيران سنة٣٢٣ق.م)، وله من العمر (اثنتان وثلاثون سنة)، وقد تعددت الآراء بين المؤرخين في سبب موت الإسكندر فالبعض منهم قد عزى موته إلى سم دس له مع النبيذ أو الماء، والبعض أرجعه إلى نوع من البكتريا القاتلة الموجودة في نهر ستيكس.

كما أن بعض البحوث الطبية الحديثة أرجعت سبب الوفاة إلى إحدى الأمراض الطبيعية المزمنة التي من المحتمل إصابته بها أثناء أسفاره، وفي مقدمتها الملاريا، والحمى التيفية.

أيًا يكن السبب فقد مات الإسكندر في ريعان الشباب، وأُسدل الستار لينهي تلك المسرحية التي لعبها ذلك المغامر. الذي ظن بنفسه الظنون، ظن أنه خالد لا يموت

لأنه من نسل الآلهة، وأنه قادر على كل شيء، ويستطيع أن يهزم أعتى العتاة أمثاله، ولن يستطيع أحد الوقوف في وجهه، وإلا ناله من القتل، والصلب، والسبي، وتخريب الديار ما لا تستطيع الألسن وصفه. حتى أطلق عليه الفرس أسماء، مثل: الفتَّاك، القاتل، جالب الموت، مدمر المدن، ومع ذلك نرى هذا الجبار الشاب المعتد بنفسه إلى حد الجنون الذي اكتسح ما اكتسح من المدن والبلدان، وقتل ما قتل من البشر، وخرَّب ما خرب من الحصون والقلاع، والبيوت.

خرَّ اليوم صريعًا عاجزًا أمام تأثير كأس شراب. أو هجوم لبكتريا لا ترى بالعين المجردة لضآلتها، وصغر حجمها أو اعتداء من جرثومة أخرى فعلت به ما فعلت أو لعلها ناموسة صغيرة ضالة هاربة من أحد المستنقعات أحبت أن تهده بخرطومها الصغير مرض الملاريا.

لكن يا ترى هل كانت تلك الناموسة الضالة تعرف أنها بلسعتها تلك سوف تقتل ابن زيوس .. ابن آمون .. الفاتح العظيم القاتل المهلك الذي طأطأت له الرؤوس وهابته الجبابرة ..؟ ونحن البشر نعرف أن الحقيقة وكل الحقيقة التي لا مهرب منها، ولا مناص أن الموت سيطال الجميع سيطال الأمير كما يطال الغفير، والجميع سيان أمام هذا القدر المحتوم الذي قضاه الله تعالى على كافة المخلوقات..

وضع جثمان الإسكندر في تابوت من الذهب، وانطلق الموكب من بابل قاصدًا مقدونيا مسقط رأس الإسكندر وعاصمة ملكه لكن، وأثناء الطريق اعترض بطليموس الموكب الجنائزي، واقتاد الجنازة إلى منف عاصمة مصر آنذاك، حيث حنط على الطريقة الفرعونية ودفن، يقال: بأن بطليموس الثاني قام بنقل مومياء الإسكندر إلى الإسكندرية أما اليوم فالمومياء مجهولة المقام.

## مصير الإمبراطورية بعد موت الإسكندر

فوجئ الجميع بموت الإسكندر، وزعم البعض أن هذا النبأ لا يتعدى كونه إشاعة ولم يستطيعوا تصديقه لكنها سنة الله في ملكوته، فالنهاية المحتومة لكل حي من المخلوقات هي الموت .. الموت الذي يستوي أمامه الجميع .. الموت الذي لن يدع كبيرًا، ولا صغيرًا ولا عظيمًا، ولا وضيعًا؛ إلا ويحصده عن وجه الأرض ليدفنه، ويغيبه في باطنها.

لم يكن الإسكندر قد خلف بعدُ وريثًا يجلس على عرش الإمبراطورية، ويقال بأنه قد سئل عمن يتولى حكم هذه الإمبراطورية الواسعة بعده، فأجابهم بإيجاز: (الأقوى)، وهناك رواية أخرى تزعم أن الإسكندر أعطى خاتمه إلى بيرديكاس، وهو أحد حراسه الشخصيين، وقائد خيالته، وبذلك يكون قد رشحه لخلافته.

لكن آخرون رشحوا أخا الإسكندر غير الشقيق فيليب ليتشارك بالحكم هو وابن الإسكندر الوليد حديثًا (الإسكندر الرابع) لكن كل تلك الجهود لم تُجدِ إذ سرعان ما دب الخلاف بين المقدونيين، وحدث انشقاق بين كبار الضباط الذين ملك الطمع قلوبهم.حيث راح كل واحد منهم يصارع من أجل الاستئثار بالحكم لنفسه؛ لذلك قام بيرديكاس بتقسيم أراضي الإمبراطورية، ووزعها عليهم حقنًا للدماء، ومع ذلك لم يقف طمعهم عند هذا الحد، فراح كل واحد منهم يهاجم الآخر بغية توسيع ملكه، وبعد اغتيال بيرديكاس سنة [٣٢١ق.م] انهارت الوحدة المقدونية بالكامل، فتحارب إخوة الأمس فيما بينهم [٤٠سنة] سفكوا فيها من الدماء ما سفكوا، يقودهم الطمع، ويؤججهم الحقد، ولعل هذا يذكرنا بحال اللصوص، ونزاعاتهم، واقتتالهم عند اقتسام الغنائم.

لذلك تم اغتيال الأخ غير الشقيق للإسكندر (الملك فيليب)، وابن الإسكندر (الإسكندر الرابع ) اللذان رشحا ليكونا على عرش الإمبراطوية.

لم تنته تلك الحرب؛ إلا بعد أن قسمت الإمبراطورية إلى أربعة أقسام: المملكة البطلمية في مصر وجوارها (نسبة إلى بطليموس)، والإمبراطورية السلوقية في الشرق، ومملكة برغامون في آسيا الصغرى، ومملكة مقدونيا، وكان كل ملك من هؤلاء الملوك الذين عرفوا بملوك الطوائف مستقل بذاته لايدين بالولاء إلا لنفسه، وكان هؤلاء هم من بقوا على قيد الحياة من قادة جيش الإسكندر الذين شاركوه حملاته فيما مضى..



منحوتة رأس بطليموس

هنا لابد لنا من وقفة تأمل نُمعن فيها النظر إلى ما آلت إليه تلك الجهود الجبارة التي بذلها الإسكندر، وضيع عمره من أجلها، فهل يا ترى آتت تلك الجهود أكلها..؟ في الحقيقة لقد انهار ذلك البناء الضخم الذي أقامه الإسكندر فور موته؛ وذلك لأنه بنى بناءه على أساس من الملح .. فتهاوى ذلك الصرح العظيم عندما أصابته وأذابته دماء المقدونيين التي سالت فيما بينهم إثر الخلاف الذي حصل.

لقد أورثهم الإسكندر الطمع، والجشع، والتطلع خارج الحدود لسلب ما بيد الغير.. أورثهم التعطش إلى سفك الدماء، ولو كانت دماؤهم! أربعون سنة من القتال

فيما بين الإخوة أفنت منهم ما أفنت، وزرعت بينهم من الأحقاد، والكراهية ما زرعت، وهذا ما يجعلنا نقول: إن ما قام به الإسكندر، وما آلت إليه جهوده من نتائج كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا، فلقد عصفت رياح التقسيم والتجزئة بما جَهِد الإسكندر في فتحه وتوحيده، فيا ليتك يا أبا زيد ما غزيت .. ولا ضيعت عمرك وأنت تجري وراء مجد موهوم دفعت في سبيله مئات الآلاف من القتلى، وأسلت من أجله أنهارًا من الدماء.

بل لعلنا إذا نظرنا إلى حروب الإسكندر من زاوية أخرى، فقد نرى أنه كان لها نتائج عكسية، وكارثية على مقدونيا بالذات ـ البلد الأم للإسكندر ـ لم يتطرق إليها محبوه، فالحب أحيانًا كثيرة يجعل المحب لا يرى مثالب المحبوب ـ فعين المحب كليلة ـ أو يتغاضى عنها، وهو لها ساتر .

أما الواقع الذي حصل فقد تطلبت حروب الإسكندر وفتوحاته أن يأخذ رجال مقدونيا ليجندهم في جيشه أو يوطنهم في المدائن المفتوحة، فأدت هجرة هؤلاء الرجال إلى ضعف المقدرة العسكرية لمقدونيا، وخلال سنوات أعقبت موت الإسكندر، وقعت مقدونيا لقمة سائغة في فم الرومان .. نعم لقد احتُل الوطن الأم، وذاق من الذل، والهوان ما كان الإسكندر يذيقه البلدان التي اقتحمها نعم لقد شرب وطنه من نفس الكأس الذي كان يسقيه لأعدائه، لقد تحدث المحللون العسكريون عن شخصية الإسكندر العسكرية، وعن خططه الفذة التي راحت تدرس في العديد من الجامعات الأوربية، فوصفوه بالأسطورة والقائد الذي لم يهزم في أي معركة خاضها، وعددوا من تأثر به من الحكام والقادة العسكريين في العصور التالية، ومنهم على سبيل المثال: القائد الروماني (بومبي ويوليوس قيصر وتراجان ونيرون وكاراكلا ونابليون بونابرت) الذي اتخذه قدوة ونبراسًا لكن بالرغم من كل تلك القامة العسكرية العالية التي كان يتمتع بها الإسكندر، فقد كان لديه خطأ مميت، وهو أنه اعتنى بتنمية كافة عضلات جسد إمبراطوريته وقواها،

وأفرغ قلبها ـ أي: مقدونيا ـ من العضلات، فالتهمه الرومان بسهولة كسمك بلا حسك، وكان قد تلاشى ذلك الحسك إثر الرخاء، والازدهار الاقتصادي الذي عاشه اليونانيون والمقدونيون، والذي نشأ جراء تدفق الأموال المنهوبة، والمستولى عليها من المدن المغتصبة التي كان يرسلها إليهم الإسكندر، في الحقيقة إن هذا هو دائمًا حال أي مستعمر، فهو ينهب البلاد التي يحتلها، ويمتص دمها كالعلق ليعيش هو، وشعبه برفاهية على حساب الشعب الآخر الذي أُلبس نير العبودية، ونُهبت ثرواته وخيراته رغمًا عنه، وترك ليعاني من الفقر، والتخلف ما يعاني.

**صفات الإسكندر الجسدية والنفسية:**

أورد المؤرخ البريطاني بيتر غرين وصفًا لهيئة الإسكندر الخارجية استنادًا إلى المنحوتات التي تمثله، وما قيل عنه في المخطوطات القديمة فقال: «لم يكن الإسكندر بالرجل الجذاب من ناحية المظهر، فقد كان بالغ القصر حتى بالنسبة للمعيار المقدوني، وممتلئ الجسم مكتنز كان ذا لحية كثة، وجعل نفسه مميزًا عن قادته عبر حلاقتها كاملة. كان عنقه ملويًا بعض الشيء لدرجة أنه كان يبدو وكأنه ينظر نحو الأعلى قليلًا كشفت عيناه (إحداهما زرقاء، والأخرى بنية) عن خصال ندية أنثوية. كما تميز بمزاجه الحاد وصوته الأجش».

لقد كان لأبوي الإسكندر تأثير كبير في تكوين شخصية الإسكندر فمنذ وعى على هذه الدنيا، وهو يرى أباه الذي كان يعتبره مثله الأعلى يفتح القلاع والحصون، وكان قلقًا من أن أباه لن يترك له إنجازًا مهمًا أو عظيمًا يستعرضه أمام العالم كما كانت والدته واسعة الطموح غرست فيه فكرًا جعله يعتقد بأن قدره هو غزو الإمبراطورية الفارسية.

يقول المؤرخ بلوتارخ: «إن هذا الطموح هو ما أبقى قلب الإسكندر وروحه شامخة وجادة لا تعرف اليأس، ولا الكلل طيلة تلك السنوات من الحملات، والفتوحات».

إن من أبرز صفات الإسكندر: طبعه الحاد، وتهوره، واندفاعه، وعناده الشديد، وتصلبه بالرأي بالرغم من تقبله لسماع رأي الآخر ما دام منطقيًا، وكان ذا إرادة قوية فلم ينغمس في ملذات الجسد لكنه كان ضعيفًا أمام كأس الخمر فظل يعاقرها إلى أن مات.

إن فتوحات الإسكندر تلك، وفي تلك المدة الزمنية الوجيزة نسبيًا، وإطراء أصحابه له وإعجابهم بإنجازاته، وكذلك إعجاب الناس به جعلته يصاب بجنون العظمة في آخر حياته، ولقد فُهم ذلك أيضًا من وصيته التي كانت تشير إلى أنه كان يريد غزو العالم كذلك فكرة أنه ابن الإله زيوس عززت لديه ذلك الشعور بجنون العظمة .. لقد أصبح في آخر حياته ديكتاتورًا، وقاسيًا، فهو يريد أن يكون أقوى رجل في العالم، وراح يروج لنفسه بالدعاية، وببناء تماثيل لشخصه، وأطلق اسمه على أكثر من سبع وخمسين مدينة، وكذلك أطلق اسم حصانه، وكلبه لطبع سلطته على المشاهد العامة والسيطرة على مشاعر الناس.

كما أن جنون العظمة تمثل في أنه كان يضع أسدًا أسيرًا بجوار خيمة القيادة دلالة على القوة، وأنه سوف يفعل الشيء نفسه مع أعدائه.

ختامًا نقول: إنه مهما كانت الأسباب، ومهما كانت الحجج التي يلهج بها البعض ليعلي من شأن الإسكندر أو ليبيح له ويبرر ما قام به من قتل، ودمار، وتخريب، ومن اجتياح للمدن، والبلدان، ومهما كان الدافع الذي روَّجوا له: من مجد شخصي كان ينشده أو نشر ثقافة أحبها أو بهدف تلاقح حضارات سعى جاهدًا في سبيل تمازجها، وما إلى ذلك .. فإنها كلها أسباب واهية لا تبيح له، ولا بأي شكل من الأشكال هدر دم إنسان واحد أو مس كرامته بسوء أو هدم بيته، وحتى لو كان هذا البيت بيتًا بسيطًا ليس بذي شأن لقروي يعيش مسالمًا في أقصى الشرق، وفي أعالي جباله ..! أما نشر الثقافات، ودمج الحضارات أو تمازجها، فكلنا يعرف أن هناك طرقًا سلمية كثيرة تحترم الإنسان، وعقل الإنسان، وكرامة الإنسان، وتحقن دمه، وتفي بالغرض المطلوب ..

## ٣- هانيبال .. سائحًا إلى روما

الإله بعل هو إله قرطاجة المعبود، له شكل إنسان برأس ثور مفرود الذراعين، وضع في مكان مهيب داخل معبد. (هاميلكار) القائد القرطاجي العظيم، وقف وولده هانيبال ـ الذي لم يتعدَّ التاسعة من عمره بعد ـ أمام هذا الإله ليستمع إلى القسم الذي لقنه لولده بعد أن قدم لبعل ضحية بشرية، وضع هانيبال يده على القربان، وقال:

«أقسم أمامك أيها الإله العظيم، وأمام أبي أنني سأحمل الكره في قلبي لكل الرومان، وسأطاردهم ما دمت حيًّا».

أنشأ الفينيقيون (قرطاجة) في تونس في القرن التاسع قبل الميلاد، ولعبت دورًا مهمًّا كمركز تجاري يطل على البحر المتوسط، ويستقطب كل تجارته، لذا شكل القرطاجيون إمبراطورية تجارية، واستعمارية ضاربة شملت كل شواطئ وجزر البحر الأبيض المتوسط الغربي، وعندما سرى الضعف في أوصال هذه الإمبراطورية استولى الرومان على كل ممتلكات قرطاجة في البحر المتوسط، وانتزعت منها جزر كورسيكا، وصقلية وسردينيا، وسحبت منها السفن التجارية، لكن دولاب القوة والضعف دائم الدوران فدوام الحال من المحال؛ لذا راحت قرطاجة تستعيد عافيتها بعد فترة من الزمن فسحقت القوات الرومانية في قرطاجة، ونفضت غبار الهزيمة عن كتفيها، وكان يوم سعدها يوم علمت بغرق الأسطول الروماني المؤلف من [٣٦٠ مركبًا] بعاصفة بحرية، وذلك بعد أن تم تدمير عدد غير قليل من السفن على يد القرطاجيين، وهكذا يكون الرومان قد خسروا حوالي [٧٠٠ سفينة] مما اضطر روما إلى التنازل عن البحر تاركة السيطرة لقرطاجة التي فتحت شهيتها، وراحت تسعى للتوسع، والامتداد برًّا أيضًا.

زحف هامليكار أبو هانيبال على شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا) وأنشأ قرطاجة جديدة دعيت قرطاجنة، ومن لحظتها عرف الجميع أن هؤلاء القرطاجين لن يكتفوا بإسبانيا بل سيزحفون على أوربا بأكملها.

تدرب هانيبال الصغير على جميع فنون القتال فأجاد .. كذلك تلقى تربية رائعة على يد أساتذة يونان .. وكان من مفاخره أنه لم ينم في بيت قط، وإنما عاش حياته كلها في القلاع، والخيام. في الخامسة والعشرين من عمره أصبح قائدًا لامعًا للجيش القرطاجي وقد وصف بالمكر، والفظاظة الفينيقية، والعدو الأزرق لروما.

افتعل ذريعة لاعلان الحرب عام [٢١٨ ق.م]، فمشى إلى ساغونت، واحتلها بعد حصار دام ثمانية أشهر. ثم باع كل من بقي منها حيًا، وأرسل قسمًا من الأسلاب لتوزع بين المتنفذين في قرطاجة. هذا ما أثار روما وجعلها تعلن الحرب على قرطاجة نصرة لحلفاء الشعب الروماني، لكن هانيبال لم يعر تهديدات روما اهتمامًا، وانطلق باتجاه إيطاليا على رأس جيش جرار يعد [٩٠ ألف] ليبي وإيبيري مشاة، و(١٢ ألف فارس و٣٦ فيلًا) لقد قرر أن يغزو إيطاليا من الشمال.

لقد اختار أصعب الطرق فاضطر أن يشق طريقه بالسيف حينًا، وبالمهادنات حينًا آخر عبر المناطق غير الخاضعة شمال إسبانيا ثم عبرت قواته جبال البيرينيه بعد ما خاض معارك طاحنة مع القبائل الفرنسية كان ينتصر بإطلاق الفيلة على أعدائه الذين فوجئوا بهذا الحيوان العجيب الذي لم يروه من قبل، لكنه مع ذلك فَقَد حوالي نصف جيشه حتى ذلك الحين. عندما وصل إلى نهر الرون استولى هانيبال على الزوارق الموجودة. ثم افتعل معركة لا ضرورة لها فقتل من أعدائه حوالي عشرة آلاف رجل، وسد بجثثهم النهر ثم عبر بقواته فوقهم، في نهاية شهر أيلول شرع بعبور جبال الألب المغطاة بالثلوج فعرض جنده لخطر العواصف، والانهيارات الثلجية والموت. بعد [١٥ يومًا] نزل الجيش في

سهول الغول سيزالبين بعد أن خسر هانيبال نصف جيشه أيضًا، ولم يبق معه سوى (ألف جندي مشاة، وستة آلاف فارس ،وثلاثة فيلة). لقد كان يعرف حق المعرفة أن ليس أمامه إلا النصر أو الموت، فهو الآن بعيد عن القواعد التي انطلق منها وهو معزول برجاله كما لم يعزل قائد من قبل، وليس لديه أي مدد بري أو بحري كان؛ لذلك كان يقول: إنني لا أحارب الرومان فقط، وإنما أحارب إله الحرب نفسه.

بهذا الجيش المرهق، واجه طليعة الرومان ودحرهم في تيسين. ثم اجتاز سهل البو، وعلى ضفاف تريبيان في كانون الأول [٢١٨ ق.م] هزم جيوش القناصل تيبريوس سامبرينوس وفـ(كونليوس سيبيون) اللذين سارعا لصده، عندها سارع الرومان لتعزيز مواقعهم حماية لطريق روما لكن هانيبال بفكره المغامر قلب موازين المواجهة ففي أربعة أيام اجتازت قواته المستنقعات المعتبرة متعذرة الاحتلال من توسكانيا لكن بثمن باهظ من الرجال والرواحل، ولقد فقد هانيبال عينه، وآخر فيل لديه لكنه استطاع الوصول لمؤخرة الجيش الروماني، وإلى درب روما الذي فتح أمامه.

سارع القائد الروماني فلامينوس لصد العدو لكنه وقع في كمين فأبيد هو وجيشه، وهكذا أصبح الطريق إلى روما ممهدًا لكن هانيبال أراد أن يمزق الحلف الروماني أولًا معلنًا نفسه محرر الشعوب الإيطالية من النير الروماني فكان يحطم بلا رحمة كل المستعمرات، والحاضرات الرومانية، واللاتينية، في العام [٢١٦ق.م] حزم الرومان أمرهم وقرروا مهاجمة هانيبال والتخلص منه، وبدأت المعركة في وادي أوفدوس قرب كانس، وبفضل حذق هانيبال وبراعته تمت محاصرة الجيش المؤلف من [٨٠ ألف رجل] وإبادتهم ولم ينج سوى القنصل فارون وبعض جنوده.

أصبح وضع روما مأساويًا بعد الذي حصل في وادي أفدوس فأصابها ما يصيب البقرة عندما تقع أرضًا فتنهال عليها السكاكين من كل جانب، راحت الانتفاضات

في المستعمرات تستعر، وتنجح في إبادة القوات الرومانية، كما أعلن البعض انفصاله عن روما، وانتقل عدد ضخم من اليونان الكبرى إلى جانب هانيبال، وكذلك انضم إليه ملك مقدونيا (فيليب الخامس) وفي إسبانيا حطم أسدروبال أخو هانيبال جيشين رومانيين، في العام [٢١١ ق.م] شن هانيبال هجومًا على لاتيوم ووصل حتى روما قرب باب كوللين، وأطلق أول حربة في هذه المدينة دلالة على حقده، وبدت الدولة الرومانية كأنها تشارف على الانهيار.

استلم فابيوس كونكتاتور القيادة في روما، وبدأت الصحوة الشعبية فخمدت المعارضة بعد أن أحس الجميع بالخطر الداهم، في العام [٢١٤ق.م] نهض كل الرجال بدءًا من الـ(١٧ ربيعًا فشكلوا ١٨ فرقة رومانية مقاتلة، وتطوع ٨٠٠٠ عبد للقتال أيضًا)، وكان تكتيك فابيوس يعتمد على المماطلة.

لقد كان يقول: إننا نحارب على أرضنا والوقت، والمماطلة في صالحنا أما هانيبال فإنه غريب وجيشه، وإمداداته شبه معدومة ولن يصمد طويلًا. لكن هذا الأمر تطلب من روما عشر سنوات، أمَضَّتْ هانيبال هذه المماطلة، وقصمت ظهره، لكن الضربة الأقسى جاءته من ناحية أخويه حينما صُرع أسد روبال، وهزم جيشه في إسبانيا ورُمي برأسه في معسكر هانيبال كذلك فشل ماغون الأخ الأصغر بمهمته في الإبحار لمساندة هانيبال، وتعزيز جيشه، وهكذا عزل جيش هانيبال، ولم يعد مصدر خطر لروما، فهو الآن جيش جائع بائس مرهق لا أمل له في أي نصر، وذلك بعد أن خرّب أوربا كلها واكتسحها من شرقها لغربها، ومن شمالها إلى جنوبها وقتل من الرومان نصف مليون إنسان لكنه لم يستطع أن يدخل روما ها هو ذا على أبوابها عندما جاءته رسالة من مجلس الشعب القرطاجي قصمت ظهره: لقد تحرك الرومان نحو قرطاجة يريدون احتلالها، احضر حالًا لتدافع عن مسقط رأسك ...

مع أنه كان ينتظر أية دعوة من المركز للعودة ليغطي إخفاقه في احتلال روما يحفظ ماء وجهه بعد [١٥ عامًا] من الحرب. لكن ليس بهذا الشكل إنها قرطاجة .. جمع فلول قواته ببعض المراكب، وتحاشى الأسطول الروماني وسار إلى قرطاجة، وقال: «الآن سأحارب في بلاد لا أعرفها»، ولما كان غير متأكد من النصر اقترح الصلح لكنه رُفض. دارت المعركة وانتصر الرومان نصرًا مؤزرًا، وطُلب رأس هانيبال ففر إلى سوريا وأخفاه الملك أنتيوخوس في إحدى القلاع، وحاول معاودة حرب روما لكنه فشل طولب برأسه العديد من المرات، ولما عرف أن لا مهرب من مطاردة الرومان له لم يتحمل أن يصير طريد روما بعد ما كان مطاردها، فتجرع سمًّا كان قد أخفاه في خاتمه، ومات بعد أن ترك عبارة كتبها على حائط:

(إلى الرومان أعدائنا لقد حاربتكم أربعين عامًا، واليوم يموت آخر جندي في طابور الكراهية الأبدية لكم).

يقال: إن هانيبال كان يتكلم اللغة (اليونانية والإسبانية واللاتينية)، وله بعض المقولات التي حفظها جنوده:

- الشعب الذي لا يعرف الكراهية العظمى، شعب لا يحق له أن يعيش.
- الشعب الذي ينسى من أهانه، شعب لا يستحق لقمة العيش.

هذه هي حياة هانيبال بدأت بقسم مشبع بالحقد، والكراهية، وانتهت بسم قاتل.

لماذا خلد لنا التاريخ هذه الشخصية ..؟ ما هي الأسباب التي جعلت لعاب أقلام العديد من الكتاب، والأدباء يسيل لتناول حياة هذه الشخصية ..؟ هل هو قائد عسكري فذ عظيم ..؟ هل هو سياسي ..؟ هل هو دبلوماسي ..؟ هل هو مفكر أوجد ما لم يستطع أحد إيجاده ..؟ هل ساهم في وضع لبنة ما أعلى بها جدار الحضارة الإنسانية ..؟.

هانيبال .. قائد غريب عجيب ..! لم يركن لرغد العيش، واختار الطريق الأصعب في أغلب الخيارات لقد اختار الخيام، والمعسكرات على البيوت والقصور..!!! أمضى حياته بين كر وفر، وغبار معارك لقد سكن في أذنيه أنين الجرحى، ورسمت في عينيه جثث القتلى أمضى حياته بين جند ذوي شعور منفوشة، وثياب رثة تغطي أجساد قذرة تفوح منها روائح كريهة قادرة على طرد، وقتل كافة الهوام، والحشرات في محيطها، فهل هذه هي الحياة التي تستحق أن تعاش ..؟ لقد اختار غزو روما من الشمال فسار بجيشه بمسالك لم تكن سالكة، ولم يطرقها أحد قبله فأفنى هذا القائد العظيم نصف جيشه بعواصف، وانهيارات ثلجية، وبرد لم يحسب حسابه حتى فيلته الإفريقية حاولت كظم غيظها، والتأقلم مع هذه الأجواء لكنها لم تستطع فلوت خراطيمها، ونفقت .. نعم هذا ما جناه تفكيره، وتخطيطه، وعبقريته الفذة، وكأن الذين نفقوا من جيشه كانوا فئران تجارب، ولم يكونوا من بني البشر ..!!! وعندما افتعل معركة لا داعي لها وقتل بها [١٠ آلاف نفس]، وسد بهم النهر ليمر جيشه فوقهم لا أدري إن كان يعتبر أن هذه الأنفس هي عبارة عن أكياس رمل، وليست أنفسًا إنسانية لها حق العيش، والحياة وتحمل ما تحمل من الأحلام والتطلعات ..؟! هل الإنسان رخيص إلى هذا الحد ..؟ النصر بالنسبة إليه هو الغاية المرجوة، ولا يهمه خسائره المادية والبشرية في سبيل تحقيقه. لقد خاض المستنقعات الصعبة الاجتياز واجتازها ليفاجئ الجيش الروماني، ويهاجمه من الخلف ولم يهتم لفقد قسم كبير من جيشه في هذه المستنقعات، وفقد عينه أيضًا وآخر فيل لديه.

الجندي المقاتل بالنسبة إليه لم يكن سوى وقود حيوي للنصر الذي كان يصبو إليه دائمًا لقد سار من نصر إلى نصر وروى أرض أوربا بالدماء، وكانت خاتمة هذه الحرب أنه قد مُني بهزيمة منكرة في الأرض التي أنجبته، وختمت حياته بانتحار. أيُّ حياة هذه ..؟ هل هذه هي الحياة حقًا التي تستحق أن تعاش ..؟ هل هذه الحياة التي تليق بإنسان ..؟! حياة ترعرع فيها الحقد وغذاها، فأنبتت أشواك كراهية مدمرة.

لقد أفنى من الرومان نصف مليون ..!!! نصف مليون آدمي ...!! نصف مليون إنسان ..!! ولم يكن الرومان بأقصر باعًا في هذا المجال الدموي فلقد أبادوا مئات الآلاف أيضًا من البشر في هذه الحرب المجنونة، ومن بينهم العالم الكبير (أرخميدس).

**تعالوا إخوتي في الإنسانية لنمعن النظر في نتائج هذه الحرب**، وكل حرب كم من أطفال تيتمت، ونساء ترملت، ودم أهرق؟ كم فجعت أمهات..؟ كم ذرفت دموع ..؟ كم دفنت أحلام ..؟ كم من مرة أردي الحب قتيلًا في ساحات الحقد ..؟!!

لماذا لا نعكس الآية، ونحمل الحب بدل الكراهية ..؟ لماذا لا نصون شجرة الحياة، ونعتني بها ..؟ هذه الشجرة المقدسة التي وهبنا الله إياها هي أغلى ما في الوجود.

لماذا لا نحرص عليها، ونهيىء لها التربة الصالحة لتسعد بعيش كريم. كم تمنيت أن لو عاش هانيبال حياة إنسانية عادية مفعمة بالحب حاملًا بين جوانحه قلبًا لا يعرف الكراهية، والحقد لينطلق برحلة سياحية، ترفيهية وإطلاعيه، من قرطاجة باتجاه أوربا إذن لمشى بطرقات تزين جنباتها المحبة، والبسمات، ولاستقبل بالورود بدل السيوف ولدخل روما سائحًا مرحبًا به، معززًا مكرمًا، ولم يطرد عن أبوابها كما طرد يوم جاءها غازيًا ...

**المراجع:**


- الحضارات القديمة دياكوف وفيكاليف.
- أعجب الرحلات بالتاريخ انيس منصور.
- هانيبال هارولد لام.

# ٤ـ أتيلا الهوني سوط الرب

هل سمعت بأتيلا الهوني ...؟ مَن أتيلا الهوني ...؟ متى نشأ وأين ..؟ ماذا فعل ...؟ ولماذا احتفظ التاريخ باسمه .. ؟ هل شكل إمبراطورية ..؟ أم أنه قاطع طريق ..؟ أسئلة كثيرة تخطر على بال أحدنا، وقد تكون الإجابات عن بعض تلك الأسئلة غير شافية للغليل؛ وذلك لنقص في المعلومات، والمصادر التي أرّخت له.

إذ لم يكتب عنه، إلا أعداؤه الرومان الذين اكتووا بناره، وذاقوا من حد سيفه وويلات حربه ذلك ما جعلهم يصفونه بأبشع الصفات، ويروون عنه أشنع الروايات، ولو أرخ له قومه لوصلتنا صفات مغايرة تمامًا لما وصفه به أعداؤه.

أما الحقيقة الناصعة فستبقى دائمًا تحوم على الخط الفاصل بين السيد والمسود بين المعتدي، والمعتدى عليه، فكثيرًا ما كُتب التاريخ لصالح شخص ما يتربع على عرش القوة والجبروت أو لصالح شعب امتطى ظهر شعب آخر، واستعبده فكانت تلك الكتابة مليئة بالزيف والنفاق تحكي عكس الواقع تزين المساوئ، وتجمل المثالب، وتقلب المفاهيم، فسطرت في صفحات التاريخ الأباطيل، والأكاذيب، وألبستها لباس الحقيقة.

لكن علماء اليوم حاولوا ويحاولون أن ينقبوا، ويبحثوا ويوازنوا، ويدرسوا دراسات جادة محايدة ساعدت في وضع بعض النقاط على الحروف التي قد تساهم في الكشف عن الحقيقة التي يصبو إليها كل محب لها.

**أصل أتيلا الهوني:**

ينتمي أتيلا إلى قبائل بدوية، تعتمد على الرعي، تدعى قبائل الهون (Huns)، وهي مجموعة قبائل الغور (Ghurs)، والهون هم أجداد الأتراك الذين استوطنوا، وسط آسيا

شمال البحر الأسود، والترك أو طغج باللغة التركية هم أبناء تورغما بن كومر بن يافث بن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ .

نزح الهون من نهر الفولغا حوالي العام [٣٧٠م] إلى أوربا، وكانوا يعرفون بالبلغار والهنغار، واستوطنوا شرق أوربا، فيما يعرف اليوم ببلغاريا، وهنغاريا (المجر).

كان الهون فرسانًا مهرة تميزوا بالسرعة، ومفاجأة العدو، فهم يجيدون ركوب الخيل، ورمي السهام، وهم فوق ظهور خيولهم، وكأنهم ملتصقون بسروجها؛ وذلك لوجود داعم أمامي، وخلفي للسرج الهوني مما يتيح للخيال سهولة الحركة ويسمح له بلف جذعه بالكامل ليطلق السهام في كافة الاتجاهات، وكأنه على منصة إطلاق متحركة وهذا أحد الأسباب التي جعلت الهون يتفوقون على خصومهم بينما كان السرج الروماني له دعامة من جهة واحدة فقط لا تمنح الفارس حرية الحركة كالتي يمنحها السرج الهوني.

لقد كانت جيوش الهون كلها من الفرسان لذلك تميزوا بسرعة المناورة، ومفاجأة العدو، وإمطاره بالسهام بينما كانت الجيوش الأوربية الجرمانية تتسلح بالهراوات الثقيلة، والمطارق الحديدية، ويعتمد عناصرها على القوة البدنية في القتال، وكان جنود المشاة هم عماد تلك الجيوش، وليس الفرسان، وعندما كان الرومان يحاولون الإطباق على الجيش الهوني أثناء المعارك كان الهون يلوذون بالفرار مسرعين .. ثم يعودون فيكرون كالبرق الخاطف ليمطروا أعداءهم بالسهام، ويقضون على أعداد كبيرة منهم .. وهكذا كان الهون ينتزعون النصر.

عُرف الهون ببنية جسدية قصيرة آية في البشاعة، فمنذ الولادة كانوا يقومون بتشويه جماجم أطفالهم، وكانت تلك عادة شائعة بينهم إذ كانوا يقومون بإجراء جرح على طول

الرأس. ثم يقومون بوضع ضمادة على جبين الطفل ويضغطون بها لفترة من الزمن فيتشوه الرأس. نعم يشوه عظم الجمجمة، وهذا ما كان يعطيهم منظرًا رهيبًا، مخيفًا، وهمجيًا.

**من هو أتيلا الهوني ..؟؛**

إذن أتيلا هو ابن تلك البيئة الواقعة في السهل الهنغاري، وهي بيئة مراع، وخيام ورمي سهام، فيها ولد عام [٤٠٦م]، وفيها نشأ في كنف عمه روعا بعد وفاة أبيه مونجوك، وقد اشترك مع عمه في الحروب، واكتسب خبرة حيث تعلم إدارة الدولة وتعلم سياسة، وقيادة الهون لكن لم يُعرف الكثير عن نشأته الأولى؛ وذلك لعدم وجود المصادر الكافية.



أتيلا الهوني

استلم الحكم بعد وفاة عمه روعا هو وأخوه بليدا عام [٤٣٤م]، وكان عمره حينها [٢٨ سنة] كان أميًّا لا يستطيع القراءة، ولا الكتابة لكن ذلك لم يؤثر عليه، وذلك لتمتعه بذكاء فطري.

**اما صفاته الجسدية** فقد كان (أتيلا) قصير القامة، عريض الصدر، كبير الرأس، صغير العينين، خفيف شعر اللحية، وخط الشيب شعر رأسه، أفطس الأنف، داكن اللون، وُصف بأنه كان بسيطًا في ملبسه، ومعيشته معتدلًا في مأكله ومشربه، يترك الترف لمن هم دونه ممن يحبون التفاخر والتظاهر.

اما قصره، فقد كان بيتًا خشبيًّا ضخمًا فرش بالطنافس، والجلود، والمنحوتات الخشبية .. ولقد وصفه أبناء جلدته، بقولهم: لم يكن الملك أتيلا شريرًا بطبعه لكن الأوربيين لقبوه بعدو الله دون وجه حق فهو كان يحترم القانون، ويرحم الأسرى، ويلتزم بالاتفاقيات التي أبرمت بينه، وبين العدو.

كذلك كان الملك أتيلا عادلًا مع قومه، ووفر لهم الأمان، والاطمئنان، وكان يكنُّ الاحترام لهؤلاء الروم الذين كانوا يسكنون في المناطق التي كانت تحت سيطرته، ويعتبرهم جزءًا من شعبه.

**اما اعداؤه فقد نعتوه بصفات عديدة منها:** (أتيلا) قاتل وناهب، وغازٍ وهمجي رهيب لا توجد ذرة شفقة في قلبه، شخص متوحش، وبدائي التفكير متعطش دائمًا للدماء عاشق للقتال، وحش يبحث دائمًا عن فريسة إنه مجرم، وقاطع طريق الولاء لديه هو كل شيء، ويعاقب بوحشية من يخونه، وإلى الخازوق مصيره.

إنه (أتيلا) الهوني أو لعنة الرب Scourge of God كما أطلق عليه الرومان، واعتبروه السوط الإلهي الذي جاء ليعذب المسيحيين، والوثنيين على السواء لِما كان هناك من فرق كبير بين أقوالهم وأفعالهم ..



أتيـلا

وحد أتيلا الهون، واكتسح البلدان في روسيا، وأوربا ليؤسس إمبراطورية واسعة كان هو آخر حكامها الأقوياء. امتدت إمبراطوريته من نهر الفولغا شرقًا وحتى شرقي باريس غربًا، ومن نهر الدانوب جنوبًا حتى بحر البلطيق شمالًا، وكانت عاصمة تلك الإمبراطورية هي ما يسمى اليوم بالمجر.

**أتيلا والساحة الدولية:**

أدرك الرومان قوة الهونيينَ المتنامية فحاولوا التقرب منهم، والاستفادة من قوتهم تلك وتسخيرها لصالحهم فاستأجروهم ليقاتلوا عوضًا عنهم في بورغاندي، وأغروهم بالمال، فقاتل الهونيون يومها نيابة عن الرومان .. إنهم مرتزقة قاتلوا وقَتلوا من أجل

المال .. وذلك في عام [٤٣٧م] حيث هجم أتيلا على أهل بورغاندي في فرنسا هجومًا، وحشيًّا شرسًا قتل فيه كافة المدافعين عنها. ثم التفت بعد ذلك إلى النساء والأطفال .. قتل يومها [٢٠ ألفًا] لقد كان ذلك تطهيرًا عرقيًّا ملحميًّا ...

لكن لماذا قتل (أتيلا) كل هذا العدد، وبهذه القسوة ..؟ هل هناك إستراتيجية معينة وراء تلك المجزرة ..؟ وكيف كان يفكر..؟

ذكر المؤرخون أنه كان يقتل، ويدمر من أجل المال، والذهب أولًا: ثم إنه يقتل ويقتل أكثر وأكثر حتى يزرع الخوف، ويجعل لنفسه رهبة أكبر في نفوس أعدائه، ثانيًا حتى أنه في كثير من الأحيان كان يؤلف ويختلق أعمالًا مشينة لم يقم بها هو بالفعل لكنه كان ينسبها لنفسه، ويفتخر بها إمعانًا في إرهاب أعدائه أكثر وأكثر كان هذا نوعًا من الحرب النفسية التي كان يستعملها (أتيلا) ضد أعدائه بنجاح. أغدق الرومان الذهب والمال الكثير على (أتيلا) لإبادته أهل بورغاندي، ولم يدروا بأنهم بذلك صنعوا وحشًا شرهًا طماعًا شرسًا سيبحث دائمًا عن فريسة، بعد أن ذاق طعم الذهب، وعرف أن هناك منه عند الرومان أكثر مما أخذ بكثير.

(نايسوس) مدينة رومانية فيها ذهب كثير مدينة محصنة منيعة الأسوار سال لعاب أتيلا، فالفريسة سمينة مكتنزة اللحم تغري بالقنص، ولابد من قنصها .. ففي [عام ٤٤١م] عبر (أتيلا)، وجنوده نهر الدانوب واستولى على كل من سرميوم، وسنجديونوم (بلغراد)، وسرديكا (صوفيا)، وهاجم نايسوس بضراوة الذئب الجائع دخلها .. قتل أهلها بشكل مفزع، وقلة قليلة هم من نجوا من تلك المجزرة الرهيبة سَلبَ ونهب، ودمر ... دون أدنى رحمة أو شفقة.

قد يسأل المرء كيف استطاع (أتيلا) دخول تلك المدينة المحصنة ..؟ الواقع أن أتيلا يمتلك سلاحًا حديثًا فعّالًا لقد كان يستخدم جذوع الأشجار في صنع آلة تدعى

آلة الكبش[1] دك بها أسوار المدينة، وأحدث ثغرة استطاع الجند العبور منها إلى داخل الحصن، وبذلك سقطت المدينة، وأصبحت في قبضته وتحت رحمته.

صُعقت الإمبراطورية الرومانية لسقوط مدينة رومانية محصنة بهذا الشكل انتشرت أنباء ذلك السقوط المروع بسرعة هائلة، وارتعد الرومان من قدرة أتيلا على دخول المدن بهذا الشكل، وانتشرت الشائعات؛ بأن الأسوار مهما كانت حصينة فهي ليست عائقًا يقف في وجهه، وأنه عندما يدخل أية مدينة فإنه يقتل جميع من فيها، وينهبها ثم يحرقها تلك الأخبار ساعدت أتيلا كثيرًا عندما اتجه نحو أغنى مدينة في العالم آنذاك (القسطنطينية...) عاصمة شرق الإمبراطورية الرومانية التي كان فيها من السكان حوالي (النصف مليون نسمة)، وكانت مدينة محصنة بأفضل الوسائل الدفاعية المعروفة في ذلك الوقت حتى أنها كانت تتميز بسماكة جدران أسوارها التي تقارب (الأربعة أمتار)، ومن الصعب جدًّا اختراقها بالوسائل البدائية التي كانت لدى المهاجمين لكن الخوف كان قد أخذ من أهلها كل مأخذ إثر ما سمعوه عن أتيلا، وأفعاله فألقوا إليه بالذهب اتقاء شره، وكي يبتعد عن بلدهم ويتركهم بسلام، ضاعفوا له الجزية أضعافًا لقد أعطوه [٢٧٠٠ كغ] من الذهب .. إنها ثروة كبيرة لم يكن يحلم بها في حياته..! لم يقتنع بهذا فقط بل لقد طالب بالفارين من جيشه الذين لجأوا إلى الرومان ... فسلموهم له على الفور، وبالتأكيد لم يستقبلهم باشًا مبتسمًا مرحبًا بل عاقبهم جميعًا بوضعهم على الخازوق، وتركهم ليموتوا موتًا بطيئًا يستمر لمدة يومين أو أكثر إنه قتل وحشي ينم عن شخصية شرسة همجية سادية.

---

(١) آلة الكبش: عبارة عن جذع شجرة ملبس من طرفه بمادة معدنية قاسية محمول على حبال بحيث يكون حر الحركة ليضرب به السور أو باب القلعة، ويكون له ساتر علوي ليقي المهاجين من السهام أو الحجارة التي من الممكن أن ترمى عليهم من فوق الأسوار.



أتيلا الهوني في سجلات فيينا [١٣٦٠]

في عام [٤٤٤] أصبح أتيلا أقوى رجل في أوربا كان قادرًا على أن ينزل إلى الميدان بجيش قوامه أكثر من (خمسمئة ألف مقاتل) لذلك رأى في نفسه أن ليس هناك ما يحول بينه وبين السيادة على أوربا كلها، وكذلك على بلاد الشرق بأجمعها .. هابه الجميع، ورجفت فرائص الإمبراطوريتين الرومانيتين الشرقية، والغربية خوفًا، ورهبة منه ومن بطشه الذي راح يعصف بالبلدات الرومانية الواحدة تلو الأخرى مغتصبًا، وناهبًا وقاتلًا، ولا يتركها إلا بعد أن يحرقها، وقد ساعده في حروبه تلك ضعف عدوه إذ لحسن حظه أن الإمبراطورية الرومانية كانت قد انقسمت إلى إمبراطوريتين شرقية (بيزنطه) يحكمها الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني، وغربية يحكمها الإمبراطور فلنتنيان، وراح الإمبراطوران يدفعان الجزية لأتيلا يشتريان بها السلام لبلديهما. استمرا على هذا النهج، وهما يغدقان الذهب على أتيلا لمدة [١٢ عامًا].

شعر (أتيلا) بقوة لا متناهية، وأن الذي ينقصه حتى يكون الحاكم المطلق هو شيء واحد إزاحة أخيه (بليدا) الذي كان يشاركه الحكم أخوه في السلاح، والدم وخاصة بعد أن دب خلاف بينهما وشعر بمنافسة (بليدا) له.

ففي عام [٤٤٥م] خرج (بليدا) إلى الصيد ولكنه لم يعد .. لقد قُتل (بليدا).. واتَّهم المؤرخون (أتيلا) بقتل أخيه.

أصبح (أتيلا) هو القائد الوحيد الذي يدين له الجميع بالولاء كانت الأموال تنهال عليه من كل جانب، فراح يجزل العطاء لجنوده حتى يضمن ولاءهم الدائم.

مل الرومان من تصرفات (أتيلا) الطائشة، ومن تهديداته الدائمة، وطغيانه، فجمعوا له جيشًا كبيرًا عام [٤٤٦م] والتقوا به في أوتوس ـ الواقعة في بلغاريا حاليًا ـ وهناك حدثت مجزرة مروعة خسر فيها الرومان أعدادًا كبيرة من جيشهم، ومُنوا بهزيمة منكرة.

لكن حفظًا لماء وجوههم راحوا يتحججون؛ بأن أعداد الفرسان الهون كانت تفوق عددهم بكثير. لكن المؤرخين جزموا بأن العكس هو الصحيح، وأرجعوا سبب تفوق جيش أتيلا إلى الأسلوب القتالي الذي كان ينتهجه بالإضافة إلى استعمال خيالته للشبكة أو حبل الوهق حيث كان يرمى هذا الحبل ليلتف حول عنق الجندي الروماني، ويسحبه الخيالة الهون، ويجرونه وهم على ظهور خيولهم، فلا يستطيع ذاك الجندي دفاعًا، ولا فكاكًا فيكون الموت المحتم هو مصيره.

بعد هذا النصر الساحق بعث أتيلا جزءًا من جيشه إلى اليونان فدمر أماكن عديدة فيها حتى ترموبيلا ثم عاد ذلك الجيش، وانضم إلى الجيش الرئيسي المتجه نحو القسطنطينية التي اعترف إمبراطورها (ثيودوسيوس الثاني) بالهزيمة مما جعله يسعى للسلام؛ لذا قام بإرسال القنصل أناتوليوس إلى أتيلا في هنغاريا للاتفاق على معاهدة جديدة مصطحبًا

معه الكاتب بريسكوس الذي كان يكتب ويؤرخ كل ما يحصل أمامه.دهش بريسكوس لِما رأى، فقد رأى أبنية فخمة، وحمامات على الطريقة الرومانية بينما كان يتوقع مشاهدة مدينة بدائية مليئة بالخيام، والأكواخ، ولقد وصف بريسكوس أتيلا بعد تلك الزيارة؛ بأنه شخص متواضع، يحب عائلته، وهو أب حنون، وشخص اجتماعي .. بهذا يكون قد كشف بريسكوس عن الجانب الإنساني لدى أتيلا بينما كان قد وصفه في موضع آخر؛ بأنه سفاك دماء قاتل سريع الغضب، ولا يفكر مرتين في شأن خوزقة المتمردين. بعد سنتين على زيارة بريسكوس يستطيع أتيلا الحصول على كل ما أراده من القسطنطينية من تنازلات، و ذهب. في عام [٤٤٧م] اقتحم أتيلا تراقية وتساليا، وسكوزيا في جنوب روسيا، ونهبَ سبعين مدينة، وساق آلافًا من أهلها أرقاء ...

نقول: لا يعرف مآسي الحروب؛ إلا من ذاقها ..! ما أصعب الحروب ..! وكم لها من نتائج مدمرة مخزية، وبشعة على الإنسان والإنسانية .. كم من أناس قتلوا دون ذنب اقترفوه ..! وكم من أناس شردوا ..! وكم من أناس استعبدوا ..! ما أصعب أن تكون سيدًا، وبين ليلة وضحاها تصبح عبدًا رقيقًا ..! من الذي سمح لأولئك الغزاة البرابرة المعتدين في أن يستهينوا بك ... يستهينوا بالإنسان، وبكرامة الإنسان، ويسلبونه كل شيء حتى حريته، فيقلبون حياته رأسًا على عقب، ويصبح عبدًا بعد أن كان سيدًا وفقيرًا بعد أن كان غنيًّا، ومملوكًا بعد أن كان مالكًا..! إنها الحرب ... إنها الهمجية والبربرية ..! إنه العدوان الذي يؤججه الطمع، ويؤزه جنون العظمة إنها الأنانية المفرطة التي تريد الاستحواز على كل شيء؛ لأن الآخر بالنسبة لها لاشيء ...

بعد أن سيق الآلاف أرقاء أذلاء أضيفت السبايا منهن إلى أزواج المنتصرين، فنشأ جيل هجين اختلطت فيه دماء الغالب، والمغلوب مما ترك ملامح هونية على طول الأقاليم الممتدة من الشرق حتى بافاريا.

تلك هي ثقافة القوة إنها تغير كل شيء ...حتى الملامح ..! لكن كم تكون تلك القوة مفيدة، وفاعلة فيما إذا استخدمت من أجل الإنسان، ومن أجل إسعاده، وكم تكون مضرة ومدمرة فيما إذا استعملت ضده بل من أجل سحقه، وإفنائه، وإزالته من الوجود كما استعملها أتيلا في سحق، وإبادة بلاد البلقان التي عانت كثيرًا من آثار تلك الهجمات التي شنها عليهم، ومن ذلك التخريب الذي حصل لمدة دامت حوالي أربعة قرون.

كذلك تأثر نهر الدانوب فلم يعد كما كان طريق التجارة بين الشرق والغرب، واضمحلت لهذا السبب المدن التي كانت قائمة على شاطئيه.

***الهجوم على الإمبراطورية الرومانية الغربية:***

وهكذا بعد أن انتهى أتيلا من القسم الشرقي للإمبراطورية الرومانية، وارتوى من دمائها التفت إلى الجزء الغربي منها انطلق من السهل الهنغاري إلى قلب أوربا يريد أن يجرب حظه في قنص المزيد، والمزيد من الطرائد.

لقد اعتاد على إيقاع الهزيمة بالرومان المرة تلو الأخرى لكنه هذه المرة لم يُقدِّر القوة الرومانية الغربية حق قدرها؛ بل استخف بها أيما استخفاف.

عبر نهر الراين في عام [٤٥٠م]، ومعه نصف مليون رجل اتجه شمالًا بعيدًا عن موطنه يقطع مئات الكيلومترات لينفذ أغرب الغزوات في التاريخ اكتسح غرب أوربا ووصل إلى مدينة ميتز المحصنة بأسوارها لكن تلك الأسوار لم تصمد أمام آلة الكبش. فسقطت المدينة، وتعرفت على أتيلا وأفعاله .. قتل أهلها وأحرقها..! انتشرت الأخبار بسرعة قذف ذلك الرعب، والخوف في القلوب.

تابع انطلاقته في العمق الأوربي، وراحت مدن الأشباح التي هجرها أهلها خوفًا وهلعًا من هجوم الوحوش الكاسرة الجائعة المندفعة نحوهم بجنون تظهر الواحدة تلو الأخرى دخل كثيرًا من المدن الخاوية على عروشها...

**معركة شالون:**

وصل أخيرًا إلى السهول الكتالونية شمال فرنسا بالقرب من ترويس، وجد نفسه وجهًا لوجه أمام الجيوش الرومانية المتحالفة مع كثير من القبائل الجرمانية، ومع ملك القوط المعمر الذي انضم بجيشه إلى الرومان أيضًا ليساعدهم في إنقاذ إمبراطوريتهم.

قدر عدد المقاتلين بمليون مقاتل، وكانت نسبة المقاتلين (٤/ ١) لصالح التحالف الروماني التحمت الجيوش، ودارت معركة مخيفة اعتبرت من أشرس معارك التاريخ القديم جرت فيها الدماء أنهارًا، وتجندل فيها المقاتلون صرعى على تراب تلك السهول من كلا الطرفين، وقد قدر عدد القتلى في يوم واحد بحوالي [١٦٠٠٠٠] مقاتل من بينهم ملك القوط المعمر.

حصلت المعجزة، وتعرض أتيلا لخسارة جزئية كانت هي الأولى عبر حروبه الطويلة، وانتصر الرومان انتصارًا غير حاسم مما جعل أتيلا ينسحب من المعركة ليلًا انسحابًا منظمًا نحو ألمانيا، ومن ثم إلى المجر ليعيد ترتيب جيشه ويخطط لهجوم آخر. لم يحاول أحد من الرومان تعقبه بعد انسحابه إما لأن الحرب قد أنهكتهم، وإما لوجود انقسامات جرت فيما بينهم.

**غزو إيطاليا:**

أتيلا مقاتل شرس لا يتقبل الهزيمة، فهو حانق، وغاضب أشد الغضب لنتائج ذلك اللقاء الأخير بينه، وبين الرومان لذلك نظر بعين الشر إلى إيطاليا، وقرر هذه المرة أن يوجه سهامه مباشرة إلى القلب .. إلى روما التي عليها أن تدفع الثمن.

عبر جبال الألب بجيشه الجرار فنشر الرعب في النفوس، وأطلق موجة جديدة من الموت، والدمار، والخراب، وصل إلى أسوار أكويلا، وهي مدينة محصنة تعتبر خط الدفاع الأول على الحدود الشرقية لإمبراطورية روما الغربية، ولاتها كانوا من القوط جنودًا

ذوي خبرة في الحروب. صمدت المدينة حوالي (ثلاثة أشهر) وتركت انطباعًا لدى الهون أنها لن تستسلم أبدًا. يئس الجند كما يئس أتيلا من هذا الوضع، وخاصة أن التموين بدأ ينضب فهم لم يعتادوا الحصار الطويل، ولم يرد أتيلا أن يتابع طريقه باتجاه روما ويترك خلفه تلك المدينة القوية. كذلك لم يتقبل فكرة انسحابه، وظهوره أمام الرومان عاجزًا وفاشلًا.

شاءت الظروف أن رأى أتيلا سربًا من الطيور يغادر المدينة.. هذا المنظر بعث الأمل في نفسه، فخاطب جيشه بأن مغادرة هذه الطيور للمدينة تعني بأن تلك الطيور التي تتمتع بحدس قوي لا تشعر بالأمان داخل المدينة، وأن المدينة تعيش في حالة حرجة، ولن تتحمل الحصار أكثر من ذلك، وستسقط قريبًا هذا التحليل ألهب مشاعر جنده وقوى معنوياتهم فهجموا بقوة، وحماس مستخدمين أسلحتهم الفعالة المنجنيق، والكبش يدقون ويدقون حتى استطاعوا إحداث ثغرة في السور دخلوا من خلالها إلى المدينة، وعاثوا فيها فسادًا لقد قتلوا كل من فيها، وأضرموا النار في جميع أركانها بعد أن نهبوها، وهكذا سقطت أكويلا ... سقطت أقوى مدن إمبراطورية روما الغربية، وتم محوها عن الخارطة.

بذلك قُطع خيط العقد وراحت حباته تتساقط الواحدة تلو الأخرى سقطت ودمرت مدن التينوم بادوفا، فيكينزا، فيرونا، بريكسيا، برغاموا، ونجتِ مدينتي بافيا وميلان بعد أن اشترتا السلام بما قدمتاه من الذهب، والهدايا الثمينة. لقد ساد إيطاليا الدهشة، والرعب من الأعمال الهمجية القاسية التي يقوم بها الهون، فرَّ كثير من السكان من منازلهم، وبيوتهم باتجاه جزر Honoria، وقطنوها حيث كانت بداية تأسيس مدينة من أجمل مدن العالم فيما بعد؛ ألا وهي ما تدعى اليوم بمدينة البندقية.

حاول الإمبراطور تجميع جيش الإمبراطورية من الأقاليم ليواجه به الهون لكن جهوده باءت بالفشل، فلم يكن لديهم القوة الكافية للوقوف في وجه هذا الإعصار المدمر

الذي لا يبقي، ولا يذر. حتى أن الاستعانة بجيوش بيزنطة كانت غير واردة وذلك لبعد المسافة والوقت الطويل الذي يلزمها للوصول إلى روما.

إذن الطريق إلى روما سالك ممهد أمام أتيلا، والإمبراطور (فالنتينانوس الثالث) الذي فر من رافنا إلى روما لم يعد يشعر بالأمان هناك أيضًا فالوضع سيء وميئوس منه. لذلك اقترح على الإمبراطور بعض مستشاريه بأن يشكل وفدًا ويرسله إلى أتيلا محملًا بالهدايا، والأموال لينقذ الإمبراطورية من هلاك محتم.

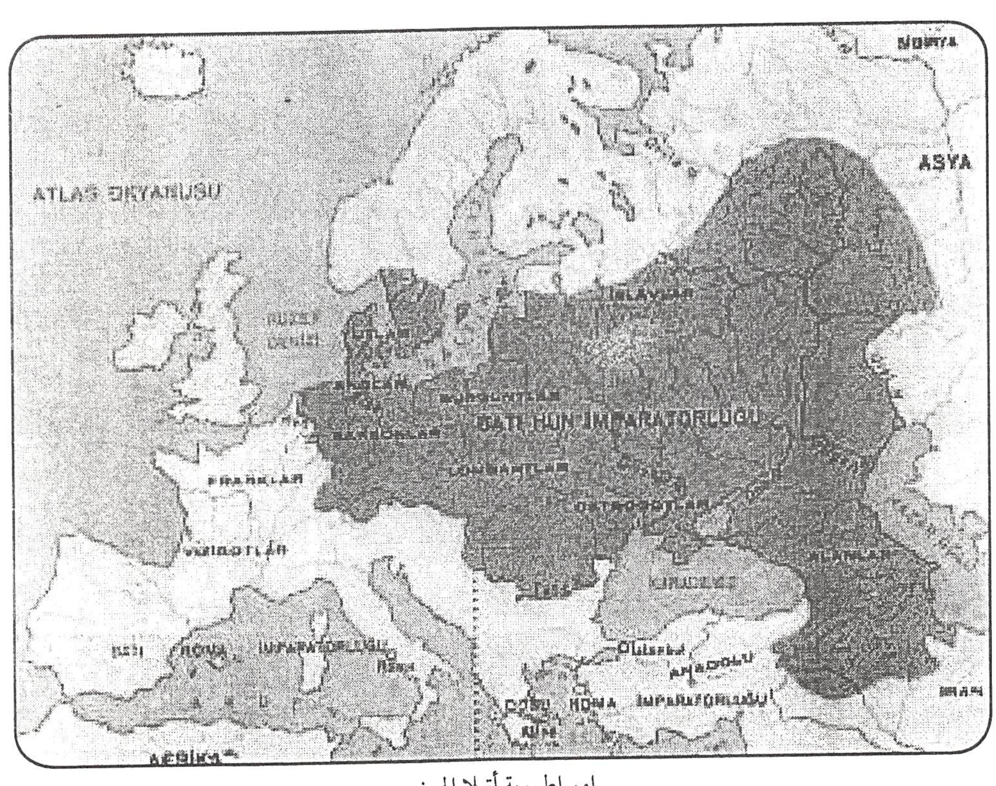
شكل الإمبراطور وفدًا رفيع المستوى برئاسة (البابا ليو الأول) واثنين من القناصل البارزين في الإمبراطورية التقى الوفد بأتيلا وكم دهش الهون عندما رأوا البابا ذاك الرجل المسن بألبسته، ومسوحه الدينية البراقة، وهو غير مسلح حاول البابا إقناع أتيلا الرجوع عن روما، وتركها بسلام بعد أن أغدق عليه الأموال الكثيرة، والهدايا التي لا تقدر بثمن المرسلة من الإمبراطور(فالنتينانوس الثالث) تزامن هذا مع انتشار وباء الطاعون في إيطاليا، وكانت مؤونة الجيش الهوني آخذة في النفاذ.

ربما لأحد هذه الأسباب أولها كلها مجتمعة قرر أتيلا أن يتراجع عن حملته تلك والعودة إلى بلاده بعد أن توعدهم بالرجوع إليهم ثانية في العام القادم، قاد جيشه فوق جبال الألب راجعًا إلى عاصمته في بلاد المجر.

***وفاة أتيلا ومصير إمبراطوريته:***

بعد العودة من إيطاليا، وفي استراحة المحارب عام [٤٥٣م] قرر أتيلا الزواج من شابة جرمانية تدعى (إلديكو) احتفل بزفافها احتفالًا كبيرًا أُثقلت فيه الموائد بالطعام والشراب دخل أتيلا على عروسه لكنه وُجد في الصباح جثة هامدة على فراشه بجانب عروسه الشابة، ولقد عُزي سبب موته إلى انفجار أحد الأوعية الدموية حيث سد دمه النازف مجراه التنفسي مما أدى إلى موته بدمه. هذا أثار الشكوك حول عروسه الجرمانية

أن تكون قد دست له سمًّا في شرابه لاسيما أنها كانت سَبيه من إحدى حملاته القاسية على الجرمان مما يكون قد ولَّد عندها دافعًا للانتقام.




إمبراطورية أتيلا الهوني

**انهيار إمبراطورية الهون:**

بعد وفاة أتيلا عام [٤٥٣م] دخلت الإمبراطورية في مرحلة ضعف مفاجئ، وذلك بعد أن تولى العرش أكبر أبنائه (إيلك) وتنازع، وأخويه على العرش، راحت بعض القبائل تنفصل عن جسد الإمبراطورية مستغلة الاضطراب الحاصل، وبدأت دولة الهون تدخل في مرحلة من الضمور والاضمحلال. بعد سنة من موت أتيلا هُزم الهون في معركة نيداو (Nedao) أمام القبائل الجرمانية، وفي عام [٤٦٩م] أي بعد سنوات قليلة من موت أتيلا تلاشت تلك الإمبراطورية، وباتت أثرًا بعد عين.




أتيلا

لا يهمنا فيما إذا كان أتيلا قد أسس إمبراطورية أم لم يؤسس. المهم لدينا في بحثنا هذا أننا حاولنا إلقاء الضوء ما أمكننا على الأعمال التي قام بها، وهي أعمال قتل، وتدمير وتخريب، واجتياح للمدن، وإحراق بعد إبادة السكان. إن تلك الأعمال توصف من قبل أبناء جلدته؛ بأنها منتهى البطولة، والقوة والمنعة، والفتح الكبير بينما هي في الواقع هجوم همجي، واعتداء صارخ على دول الجوار، وحقوق الغير أججته الأهواء ودفع إليه حب الذهب، وجمع الثروات إنه اجتياح عدائي، وعدواني كاجتياح التتار، واجتياح الإسكندر المقدوني للبلدان .. إنها أعمال بشعة مشينة في حق الإنسانية ارتكبها أولئك القادة بهمجية وبربرية لا حدود لها لم تستطع كل مساحيق التجميل التي قام بها أبناء جلدتهم بطلائها لتجميل مسيرتهم، وأعمالهم لإخفاء البشاعة المخيفة، والإجرام الدموي الذي قاموا به

..إن كل ما أنجزه أتيلا خلال (تسعة عشر عامًا) من الحروب المضنية المدمرة، وكل ما سعى إليه قد تبخر، وتلاشى بعد سنوات قليلة من موته .. نعم لقد مات أتيلا ... مات أتيلا بدمه بعد ما تفجر شريان دم في جسمه لقد عاش حياة مليئة بالدم، وأجرى أنهارًا من الدم .. إنها حياة دموية، وموت دموي مخيف ..

**هذا هو أتيلا الهوني ... !!! فتمعن يا رعاك الله ...**



## ٥ ـ ناقة البسوس

أيُّ عقل ذاك الذي كان يحمله أولئك القوم ..؟!! وأية أحلام مدماة كانت تسبح داخل رؤوسهم ..!! لقد أدمنوا الدماء، ولا أدري فيها إذا كانت أزهار الخزامى التي تنبت في صحرائهم قد أدمنت هي الأخرى تلك الدماء أيضًا ..؟! فتغذت عليها سنين طويلة بدل الماء. (أربعون عامًا)، والدماء تسيل بين الإخوة حتى شاخت الأبطال وهرمت النسور. تلك الحرب قد أفنت الأرواح، وأكلت سني العمر كما يأكل جرذ جذر نبات غض.

كليب فارس عربي أصيل شجاع ولد [سنة ٤٤٠ م]، وتولى ملك بكر وتغلب (ابني وائل)، ودانت له معد كلها إثر انتصاره على جموع اليمن في خَزَازَى، فكان له قَسَمُ الملك وتاجه، وطاعته فتربع على كرسي الملك ذلك الكرسي الخطير جدًّا، الذي ينبغي لمن يتربع عليه أن يكون شخصه أثبت من الجبال الراسيات، فيجعل الكرسي يكبُر به ويشرف لا أن يكبر هو بالكرسي فيتعالى ويغتر، وعلى الجالس عليه أن يتحلى بعقل عادل راجح، وفكر ثاقب يُعبِّد الدرب، وينير طريق الصواب، وإلا سينتاب معتليه الكبر والزهو مما يؤدي به إلى البغي، والظلم والطغيان، وهذا هو الشَّرَك الذي وقع به كليب فظن نفسه أنه فوق الجميع، ولا يستطيع أن يدانيه أحد في الشرف والمكانة، والعقل حتى بلغ من بغيه، وجبروته أنه كان يحمي مواقع السحاب فلا يرعى تحت ذاك السحاب أحد غيره، وإذا جلس لا يمر أحد بين يديه إجلالًا له، ولا يُغير أحد إلا بإذنه، ولا تورد إبل مع إبله، ولا توقد نار مع ناره، ولا يُجار أحد إلا بإذنه وهو الذي يقرر الإقامة والرحيل.

حتى إنه كان يحمل معه جرو كلب، فإذا نزل بكلأ قذف بالجرو وهو يعوي فلا يرعى ذلك الكلأ إلا بإذنه، وكان يحمي الصيد ومنابع المياه فلا تورد إلا بإذنه. إذن كان كليب مالكًا لكل شيء، وليس ملكًا حاكمًا فحسب.

زوجته هي جليلة بنت مرة بن ذهل بن شيبان لها عشرون أخًا أصغرهم يدعى جساسًا. جلست يومًا تمشط شعر روجها المنسدل على كتفيه فبادرها قائلًا: هل تعلمين أمنع مني ذمة على وجه الأرض ..؟ فسكتت .. ولما أعادها ثلاثًا، قالت: نعم .. أخي جساس، وإنه لفارس شهم يلقب بحامي الجار، ومانع الذمار .. انتزع كليب رأسه من بين يديها وخرج غاضبًا يعميه غروره، وزهوه بنفسه فرأى فصيل ناقة البسوس بنت منقذ ـ خالة جساس التي كانت تنزل في حمى ابن أختها ـ فرماه بسهم فقتله تغاضى بنو مرة عن هذه الفعلة وسكتوا .. وبعد أيام رأى كليب ابن البسوس، فقال له: ماذا أصاب فصيل ناقتكم ..؟ فقال: قتلته وأخليت لنا لبن أمه، وأغمضت بنو مرة ثانية. بأنفة واستكبار وتعال عاود كليب السؤال على زوجته:

ـ هل هناك يا جليلة من هو أعز مني وأمنع ...؟ فقالت:

ـ أخواي جساس، وهمام انزعج كليب، وخرج فمر بإبل جساس وفيها ناقة البسوس فأنكرها وسأل لمن هذه الناقة؟ قالوا: لخالة جساس، فقال: أوبلغ بابن السعدية أن يجير علي بغير إذني ارم ضرعها يا غلام فرماه فاختلط دمها بلبنها، فولت الناقة حتى بركت في فناء البسوس، ولها عجيج، فلما رأتها البسوس قذفت خمارها عن رأسها وصاحت: واذلاه .. واذلاه .. واجاراه ...وا جاراه ... فجاءها جساس يطيب خاطرها ويعدها بناقة أعظم من ناقتها وراح يزيد حتى وصل إلى عشر.

لكنها أبت ... ولما صار الليل أنشدت تقول: لتسمع جساسًا:

| | |
|---|---|
| أيا سعد لاتغرر بنفسك وارتحل | فإني في قوم عن الجار اموات |
| ودونك أذوادي إليك | فإنني محاذر ان يغدروا ببناتي |
| ولكنني اصبحت في دار معشر | متى يعد فيها الذئب يعدو على شاتي |

عندما سمعها جساس، قال لها: «اطمئني يا خالة! فإنني سأقتل بها غلالًا ـ وهو فحل إبل كليب ـ لكنه ربما كان يقصد كليبًا نفسه.

نزلت بكر على غدير، يقال له: شبيث، فقال كليب: لا يذوقون منه قطرة فمروا على عدد من الغدران منها الأحص، وبطن الجريب لكن كليبًا منعهم من ورودها، وصادف أن اجتمع جساس ومعه ابن عمه عمرو بن الحارث بكليب على غدير الذنائب، فقال له جساس: «لقد طردت أهلنا عن الماء حتى كدت تقتلهم عطشا»، فقال كليب: ما منعناهم من ماء إلا ونحن له شاغلون، وتلاسنا من أجل ناقة البسوس فطعنه جساس برمحه طعنة نجلاء جعلته يسبح في دمه، ولما شارف على الموت طالبهما بشربة ماء فرفضا، ونزل عمرو فأجهز عليه. كان ذلك سنة [٤٩٤م]. أركض جساس فرسه إلى أهله، وقد بدت ركبتاه رأته أخته فحدثت أباها عن ذلك، فقال: «والله ما خرجت ركبتاه إلا لأمر عظيم». وعلم منه بعد ذلك أنه قد قتل كليبًا، فقال له أبوه: ويل لأمك ولبئس ما فعلت لقد فرقت جماعتك، وقتلت سيدها من أجل ناقة، لكم أود لو أنك مت وأخوتك جميعًا قبل هذا.

وأرى أن نسلمك بجريرتك، ونريق دمك في سبيل إصلاح العشيرة، وعدم الانجرار إلى فتح أبواب الثأر، والانتقام. لكن قوم مرة منعوه من هدر دم ابنه ونصحوه بالتريث، في ذلك الوقت كان المهلهل أخو كليب جالسًا مع صديقه، ونديمه، وابن عمه همام بن مرة يشربان الخمر في جانب من الحي وكانا متفقين على ألا يكتم أحدهما عن الآخر أي أمر مهما يكن فجاءت جارية لهمام، وهي ممسكة بزمام فرسه فقام إليها همام مسرعًا فأسرَّت له أن جساسًا قد قتل كليبًا، وأن أهله قد رحلوا عن الحي، وعليه اللحاق بهم حفاظًا على حياته. ربط همام الفرس ورجع إلى المهلهل فسأله المهلهل ما شأن الجارية والفرس.

فقال همام: «اشرب اشرب، ودع عنك الباطل فلقد زعمت أن جساسًا قتل كليبًا». ضحك المهلهل، وقال: همة أخيك أضعف من ذلك وراحا يشربان حتى صرعت الخمرة المهلهل فأسرع همام إلى قومه فوجدهم قد قوضوا الخيام، وأخذوا أنعامهم لينزلوا بمنطقة

يقال لها النهى، وذلك بعد أن أخذوا معهم جليلة بعد أن طردتها أخت كليب، وهي تقول لها: أنت شقيقة قاتلنا .. فاخرجي من مأتمنا فخرجت، وهي تقول: هل من المعقول أن ترضى الحرة بهتك سترها، وفقد زوجها وبذر الأحقاد بين أفراد قومها.

وعندما رجع المهلهل إلى الحي، رأى قومه يعقرون خيولهم، ويكسرون رماحهم وسيوفهم، ولما عرف السبب قال: «ويحكم أتدمرون أسلحتكم، وخيولكم عند حاجتكم إليها ..؟! كفوا عن ذلك.

ثم قام إلى جثة أخيه فدفنها، وجلس إلى القبر يبكي كليبًا يندبه، ويرثيه بالأشعار ويتوعد بني مرة من غير أن يغادر القبر حتى يئس منه قومه، ووصفوه بأنه زير نساء حتى إن بني بكر سخروا منه، وفكر بنو مرة بالرجوع إلى الحي، بلغ ذلك المهلهل فانتبه إلى وجوب الأخذ بالثأر فشمر ذراعيه، وجز شعره، وقصر ثوبه وآلى على نفسه ألا يشرب خمرًا، ولا يتطيب حتى يقتل بكل عضو من كليب رجلًا من بني بكر بن وائل.

خطب قومه وحثهم على الأخذ بالثأر لكن عقلاء القوم أشاروا عليه بعدم التعجل وأن يفاوض القوم على دفع الدية لأنه بهذه الحرب لن يجدع إلا أنفه، ولن يقطع إلا كفه، فثار المهلهل، وقال: «جدعها الله أنفًا، وقطعها الله كفًّا .. فأنا لا آكل ثمنًا لكليب، ولا آخذ له دية. لكن قومه أشاروا بعدم التعجل، وأنه لابد من المفاوضات فرضخ لمشورتهم خوف أن ينفضوا عنه.

اجتمع وفد بني تغلب بمرة بن ذهل والد جساس، وقالوا له: لقد أتيتم أمرًا عظيمًا بقتلكم كليبًا من أجل ناقة، ونحن نعرض عليكم إحدى ثلاث لكم فيها مخرج، ولنا فيها مرضاة: إما أن تدفعوا إلينا جساسًا فنقتله بصاحبنا فلم يظلم من قتل قاتله، وإما أن تدفعّوا إلينا همامًا فإنه ندٌّ لكليب، وإما أن تقيدنا من نفسك يامُرَّة، فقال مرة: أما جساس فغلام خاف، وهرب، ولا أدري أين هو الآن، وأما همام فهو أبو عشرة وأخو

عشرة، وأما أنا فإني رجل طاعن في السن، ولا أتعجل الموت .. لذلك هؤلاء بني خذوا أحدهم فاقتلوه أو إن شئتم فلكم ألف ناقة. لكن القوم لم يعجبهم هذا العرض وانصرفوا غاضبين ليخبروا المهلهل الذي قال: «والله ما كان كليب بجزور نأكل له ثمنًا».

وبدأت مناوشات فردية بين الحيين سخَّنت لأول حرب بين الفريقين على ماء، يقال له: النهى حيث كانت تغلب تحت قيادة المهلهل، وبكر تحت قيادة الحارث بن مرة.

واشتد أوار المعركة، وسالت دماء أبناء العمومة لتمتزج بماء النهى الذي كانوا يشربونه هم، وأنعامهم فصبغته بلونها الأحمر. لقد انتصر التغلبيون في هذه الموقعة. أجل انتصروا.

يا للمهزلة! لقد انتصر الأخ على أخيه ... وتتالت المعارك، وانتصر التغلبيون في كل من معركتي الذنائب وواردات .. وكبدوا بكرًا خسائر عظيمة. ثم التقوا بعنيزة فتكافأ الحيان ثم التقوا بالقصيبات فخسرت بكر هذه المعركة أيضًا، وقتل فيها همام بن مرة أخو جساس، وصديق المهلهل، فمر به المهلهل، وقال له: والله ما قتل بعد كليب قتيل أعز علي فقدًا منك. ثم كانت بعد ذلك وقائع كثيرة سالت فيها الدماء، وزهقت الأرواح وكانت الدائرة فيها لتغلب، وبما أن الهدف الرئيسي لتغلب هو قتل جساس لذا أمره أبوه بأن يلحق بأخواله في الشام، فسيره سرًّا في خمسة نفر.

بلغ ذلك المهلهل فأرسل أبا نويرة، ومعه ثلاثون رجلًا من شجعان القوم في طلب جساس فأدركوه، ودار بينهم قتال شديد. ثم إن أبا نويرة وجساس تبادلا طعنتين فقتل كل منهما الآخر، ولما وصل خبر مقتل جساس إلى أبيه، مُرَّة قال: يحزنني إن كان قد قُتل ولم يقتل أحدًا منهم، فقيل له: لقد قتل أمير القوم، وقتل (خمسة عشر مقاتلًا) ما شاركه منا أحد، فقال: هذا ما يسكن قلبي عن جساس .. ثم أرسل إلى الزير، يقول له: ها قد

أدركت ثأرك فاكفف عن الحرب فهو أصلح للحيين، وأنكأ لعدوهم لكن الزير أبى وأصر أن يفني بكرًا كلها.

لجأ بنو بكر إلى الحارث بن عباد، المعروف بحكمته، وسداد رأيه؛ لأن هذا الرجل منذ بداية هذه الحرب قد حل قوسه، ونزع سنان رمحه، واعتزل هذه الحرب، وقالوا له: لقد فني قومك فأوجد لنا مخرجًا من هذه الحرب التي لم تُبق، ولم تذر.

فأرسل الحارث بجيرًا، ابن أخيه، إلى الزير طلبًا للمفاوضة. لكن الزير قتله، وقال له: بُؤْ بشِسْع نعل كليب، ولما وصل الخبر إلى عمه الحارث، قال: نعم القتيل أصلح بين ابني وائل، فقيل له: «إنما قتله بشسع نعل كليب، فأرسل إلى المهلهل: «إن كنت قتلت بجيرًا بكليب، وانقطعت الحرب بينكم وبين إخوانكم، فقد طابت نفسي بذلك، فرد عليه المهلهل إنما قتلته بشسع نعل كليب فغضب الحارث وأخذ قومه، والتحق ببني بكر وقال لهم: يجب أن تعيدوا اعتباركم، وأن تنتصروا في حربكم لذا حاربوهم بالنساء.

قالوا: وكيف ذلك؟ قال: لتخرج النساء خلف الجيش، وهذا مما يدب الحماسة والحمية في رؤوس الرجال، ولتحمل كل واحدة منهن ماء وتتسلح بهراوة، واجعلوا بينكم علامة فإذا مررن على واحد منكم سقينه وداوينه، وإذا مررن على واحد منهم قتلنه. فحلق الجميع رؤوسهم لتكون علامة بينهم، ودارت المعركة التي سميت بتحلاق اللمم فتجندلت الفرسان وسالت الدماء غزيرة حارة وانتصرت فيها بكر انتصارًا مؤزرًا وأسر فيها المهلهل على يد الحارث دون أن يعرفه، فقال له الحارث: دلني على الزير قال: ولي دمي؟ قال: ولك دمك، قال: ولي الأمان، قال: ولك الأمان، قال: أنا الزير .. وقد خدعتك عن نفسي، قال: أخبرني إذن عن كفء لبجير من قومك، قال: الكفء هو امرؤ القيس بن أبان، فجز الحارث ناصية المهلهل، وأطلقه، وقصد امرأ القيس فلقيه وقتله.

وعندما رجع الزير من الأسر واستقبله الأولاد، والنساء بطرف دامع وقلب كسير على فقد الآباء، والإخوة، والأعزاء، فقال: لا ألومكم، فأربعون عامًا طويلة جدًّا ولو قضينا هذه السنين في رفاهية، ورغد عيش لمللنا منها فكيف بنا، وقد قضيناها نصارع الموت ويصارعنا حتى كاد الحيان أن يفنيا فثكلت الأمهات، وترملت النساء، ويتم الأطفال لذا سأوقف هذه الحرب لكني لا أستطيع المكوث بينكم وأرى قاتلي كليب يسرحون ويمرحون أمام ناظري، لذلك سأرحل عنكم إلى اليمن، وفي غيابه في اليمن تصالحت تغلب وبكر وتركوا الفتنة، وتوقف نزيف الدم .

**اما عن موت الزير فتعددت الروايات:** منها أنه عاد من اليمن، ونقض عهد الصلح وأشعل الحرب ثانية بالرغم من كبر سنه، وضعف قوته، فأسر وراح يتغنى بشعر ينوح به على كليب فغضب آسره وأقسم ألا يسقيه لمدة خمسة أيام، فمات الزير عطشًا في اليوم الثالث.

**ورواية ثانية:** أنه عندما قال: «لا أستطيع المكوث بينكم وأرى قاتلي كليب يسرحون، ويمرحون أمام ناظري؛ لذلك لابد لي من الرحيل حاول ابن أخيه الجرو بن كليب أن يثنيه عن عزمه لكنه لم يستطع. عندئذ أعطاه عبدين ليقوما على خدمته، وبعد فترة مل العبدان منه، ومن خدمته فقتلاه.

وهكذا انتهت هذه الحرب المجنونة بعد أن زرعت الآلام، والأحقاد، والكراهية بين الإخوة، فكم من دماء سالت، وكم من أرواح أزهقت، وجثث ووريت رمال تلك الصحراء القاسية كقساوتهم، وكم من دموع حفرت لها مجرى في خدود لفحتها شمس الحقيقة، وكم من جيوب أمهات شقت، وكم من صدور ضربت، وكم من رؤوس حثي فوقها التراب، وكم من آهات حرقت القلوب والأكباد ...

هذه بعض نتائج الحروب التي غالبًا ما تقوم إثر سبب تافه لو تم علاجه بعقلانية وحكمة من كلا الطرفين لوفر على البشرية الخراب والدمار، ولأوقف سيل الدماء، والدموع، والآهات ... أربعون سنة من حرب ضروس أكلت الأخضر واليابس، وأكلت حتى أبناءها، من أجل ناقة رميت بسهم كِبْرٍ وعنجهية ..!.

فلماذا طاشت هكذا العقول التي ميز الله بها الإنسان على سائر المخلوقات...؟!!

ولماذا غُيِّبت ....؟! مع أن في تغييبها الفناء

**المراجع:**

- أيام العرب في الجاهلية، لمحمد جاد المولى.
- التاريخ الكامل، لابن الأثير.
- حروب ومعارك العرب في الجاهلية، لهيثم جمعة هلال.

## ٦ـ التوأمـــان

رجلان اثنان الحجاج بن يوسف الثقفي (٤١هـ ـ ٩٥هـ)، وأبو مسلم الخراساني (١٠٠هـ ـ ١٣٦هـ)، كأنهما توأمان إذ لديهما الكثير من الشبه، فكلاهما قائد عسكري ورجل سياسة وحكم كلاهما أعمل القتل في العباد، وأراق الكثير من الدماء وأسرف لكن بالمقابل كلاهما عمل على ترسيخ حكم، وقيام دولة الأول دافع عن وجود الدولة الأموية ووطد حكمها.

والثاني ساعد في الانقلاب على الأمويين، وهيأ الحكم للعباسيين ومهده. رجلان كان لهما أثر كبير في التاريخ الإسلامي وأي أثر ..؟ لقد رسما التاريخ لتلك الحقبة من الزمن رغم ما قاما به من أعمال العسف، والظلم، والقتل؛ إلا أنهما كانا عمادًا لدولتين قويتين كان لهما الأثر الكبير في التاريخ الإسلامي، والإنساني على السواء بما قدمتا من علم، ومعرفة، وحضارة غيرت وجه العالم الذي كان يرزح في كهوف تغشاها دياجير التخلف، والجهل، والظلام:

### ١ـ الحجاج بن يوسف الثقفي:

على ما يبدو إنني قد اخترت شخصية شائكة، متعددة الجوانب، تحمل الكثير من المتضادات والمتناقضات إذ مدحها كُثُر، وقدح بها كثر حتى وصل الأمر ببعضهم إلى السب واللعن، والتكفير لكن سعى آخرون إلى محاولة الإنصاف، فذكروا المثالب والمحاسن على السواء ـ كما وصلتهم ـ بلا إفراط، ولا تفريط، وأنا في هذه العجالة سأحاول تسليط الضوء على بعض جوانب هذه الشخصية التي تثري موضوع بحثنا هذا الذي نحن بصدده.

لعل هناك شبه إجماع بين المؤرخين على أن الحجاج قد استعمل أسلوبًا حازمًا مبالغًا فيه، وأسرف في قتل الخارجين على الدولة الأموية؛ لذلك اشتهر بالظلم، والقسوة،

والقتل على الظنة ووفقًا لأهوائه، وها هي كلمات ابن كثير تصف الحجاج بإنصاف (إن أعظم ما نُقم على الحجاج، وصح من أفعاله سفك الدماء، وكفى به عقوبة عند الله، وقد كان حريصًا على الجهاد، وفتح البلاد وكانت فيه سماحة إعطاء المال لأهل القرآن، فكان يعطي على القرآن كثيرًا، ولما مات لم يترك فيما قيل إلا [٣٠٠ درهم].

وقال ابن كثير أيضًا: «كان فيه شهامة عظيمة، وفي سيفه رهق [هلاك وظلم]، وكان يغضب غضب الملوك .. وقال أيضًا: وكان جبارًا عنيدًا مقدامًا على سفك الدماء بأدنى شبهة، وقد روي عنه ألفاظ بشعة شنيعة ظاهرها الكفر، فإن كان قد تاب منها وأقلع عنها، وإلا فهو باق في عهدتها، ولكن يخشى أنها رويت عنه بنوع من زيادة عليه ..، وكان يكثر من تلاوة القرآن ويتجنب المحارم، ولم يُشتهر عنه شيء من التلطخ بالفروج، وإن كان متسرعًا في سفك الدماء، فلا نكفِّر الحجاج، ولا نمدحه، ولا نسبه، ونبغضه في الله بسبب تعديه على بعض حدود الله وأحكامه وأمره لله، وقال أيضًا عن استهانة الحجاج بالقتل (فإن الحجاج كان عثمانيا أمويًا يميل إليهم ميلًا عظيمًا، ويرى أن خلافهم كفر يستحل بذلك الدماء، ولا تأخذه في ذلك لومة لائم».

كما وصف الحسن البصري الحجاج بقوله: «إن الحجاج عذاب الله، فلا تدفعوا عذاب الله بأيديكم، ولكن عليكم بالاستكانة، والتضرع، فإنه تعالى يقول: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ (المؤمنون:٧٦).

ولقد قال قائل: «لو تخابثت الأمم فجاءت كل أمة بخبيثها، وجئناهم بالحجاج لغلبناهم».

وقال الإمام الذهبي فيه: «كان ظلومًا، جبارًا، خبيثًا، سفاكًا للدماء، وكان ذا شجاعة، وإقدام، ومكر ودهاء، وفصاحة وبلاغة، وتعظيم للقرآن .. فلا نسبه، ولا نحبه بل نبغضه في الله».

ولقد ذكر ابن خلكان، والحافظ الذهبي، وغيرهما أنه أحصي من قتله الحجاج صبرًا سوى من قتل في حروبه فبلغ (مائة ألف وعشرين ألفًا)، وكذا (رواه الترمذي)، ومات في حبسه (خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة).

وقال ابن عساكر: «إن سليمان بن عبد الملك أخرج من كان في سجن الحجاج من المظلومين في يوم واحد ثمانين ألفًا .. ويقال: إنه أخرج من سجونه (ثلاثمئة ألف)».

وذكر ابن خلكان: أنه لم يكن لحبسه سقف يستر الناس من الشمس في الصيف، ولا من المطر في الشتاء؛ بل كان حوشًا مبنيًا بالرخام.

ولنستمع الآن إلى كلام الحجاج نفسه، وهو على المنبر يأمرهم بالطاعة العمياء، وأن مخالفتهم له في أي أمر تبرر له القتل كما روى عاصم: اتقوا الله ما استطعتم ليس فيه مثنوية، واسمعوا وأطيعوا ليس فيه مثنوية لأمير المؤمنين عبد الملك، والله لو أمرت الناس أن يخرجوا من باب من أبواب المسجد، فخرجوا من باب آخر لحلت لي دماؤهم وأموالهم، والله لو أخذت ربيعة بمضر لكان ذلك لي من الله حلالًا ..

**من هو الحجاج ..؟**

هو أبو محمد الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي (٤١هـ ـ ٩٥هـ) سياسي، وقائد عسكري، خطيب بليغ، لعب دورًا كبيرًا في تثبيت أركان الدولة الأموية سير الفتوح خطط المدن، وبنى مدينة. واسط، وعرف بالمبير (أي: المبيد)، ولد في قبيلة ثقيف بمدينة الطائف، ونشأ بها، وأمه الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفي، وكان اسمه كليبًا ثم أبدله بالحجاج.

تعلم القرآن والحديث، والفصاحة وعمل في مطلع شبابه مع أبيه في تعليم الصبيان لكن طموحه كان كبيرًا، ويدفعه باتجاه آخر مغاير تمامًا، وكأنه كان يحس؛ بأنه خلق لشؤون أخرى أكبر، وأهم غير شأن التعليم في مدينة صغيرة لصبية صغار.

**الحجاج في الشام:**

قرر الحجاج الانطلاق إلى الشام حاضرة الخلافة الأموية المتعثرة حينها، بسبب منازعة عبد الله بن الزبير لها حيث أعلن نفسه خليفة للمسلمين في مكة سنة (٦٤هـ ـ ٦٨٣م) بعد وفاة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، ودان له بالولاء معظم العالم الإسلامي ولم يبق سوى الأردن تدين للأمويين بالولاء.

استطاع الخليفة الأموي مروان بن الحكم الذي خلف يزيد في الحكم بالشام استعادة مصر من قبضة ابن الزبير، ثم توفي تاركًا لابنه عبد الملك استكمال المهمة حيث استطاع الابن إعادة العراق للحظيرة الأموية. وصل الحجاج إلى الشام، والتحق بشرطة الإمارة التي كانت تعاني من تسيب، وسوء تنظيم واستخفاف بالنظام، فأخذ الحجاج نفسه بالشدة، والانضباط ولفت نظر أولي الأمر إلى المثالب، والخلل مما جعل روح بن زنباع يقربه، ويرقيه فوق إخوانه فأخذهم بالشدة، وعاقبهم لأدنى خلل، وبث فيهم روح الانضباط، والطاعة المطلقة لأولي الأمر مما جعل روح بن زنباع يقدمه للخليفة على أنه الرجل المناسب الذي باستطاعته إصلاح جهاز الشرطة، وعندما قام الخليفة بتعيينه أسرف في عقوبة المخالفين، وضبط أمور الشرطة فما عاد منهم تراخ، ولا لهو إلا جماعة روح بن زنباع فقد فاجأهم الحجاج يومًا، وهم يأكلون فنهاهم عن ذلك وهم في عملهم لكنهم لم ينتهوا، ودعوه لمشاركتهم الطعام، فأمر بهم فحبسوا، وأحرقت سرادقهم، فشكاه روح بن زنباع إلى الخليفة فلما سأله الخليفة عما حمله على فعل ذلك أجاب: إنما أنت من فعل يا أمير المؤمنين فأنا يدك، وسوطك. من هذه القصة يستبين لنا ملامح هامة في شخصية الحجاج:

١ـ روح عسكرية منضبطة، تظهر شخصية قيادية يحتاج إليها الحاكم.

٢ـ روح سياسية تستطيع معالجة الأمور بحنكة وحزم.

٣ـ طاعة الحجاج لأولي الأمر طاعة مطلقة، واعتبار نفسه يد الخليفة وسوطه.

**الحرب على ابن الزبير في مكة:**

جهز عبد الملك بن مروان جيشًا لمنازلة عبد الله بن الزبير وأمَّر عليه الحجاج [٧٣هـ] وكان أهل الشام لا يخرجون مع الجيوش فطلب الحجاج من الخليفة أنْ يُسلطه عليهم ففعل، فأعلين الحجاج أن أيما رجل قادر على حمل السلاح ولم يخرج معه أمهله ثلاثًا ثم قتله، وأحرق داره وانتهب ماله. ثم قام بتفتيش البيوت بحثًا عن المتخلفين، وقتل أحد المعترضين عليه فخاف الجميع وخرجوا معه بالجبر لا الاختيار. انطلق بجيشه إلى الطائف، وانتظر المدد من الخليفة حتى أتاه، وأصبح لديه جيش قوي فسار إلى مكة وحاصرها عدة شهور، وضربها بالمنجنيق فتهدم بعض أجزاء من الكعبة (هناك خلاف بين المؤرخين حول استعمال المنجنيق في ضرب الكعبة)، وفي النهاية سقطت مكة بين يديه، وتم قتل عبد الله بن الزبير وصلبه، وكان له (اثنتان وسبعون سنة من العمر)، ونافت ولايته عن (ثماني سنين )، وللحجاج من العمر (اثنتان وثلاثون سنة)، في ذلك الوقت.

وهكذا كانت نهاية خلافة ابن الزبير، وعاد العالم الإسلامي إلى الانضواء تحت خلافة واحدة، وهي الخلافة الأموية وخليفتها يومذاك عبد الملك بن مروان، وقاعدة ملكه دمشق كافأ الخليفة الحجاج فولاه على الحجاز، وكانت تضم مكة والمدينة والطائف، ثم أضاف إليه اليمن، واليمامة فأظهر عزمًا وحزمًا في إدارته، وأعاد بناء الكعبة على الشكل الذي كانت عليه قبل بناء ابن الزبير لها، حيث كان ابن الزبير قد أدخل حجر إسماعيل داخل بناء الكعبة.

**اود هنا ان اعلق على مقتل عبد الله بن الزبير وصلبه:** فلأن الرجل كان قد قُتل في الحرب، وفي الدفاع عن خلافته، فأقول: هذه طبيعة الحروب هناك قاتل، وهناك مقتول كذلك هناك منتصر وهناك مهزوم.

**لكن أتساءل:** لماذا قام الحجاج بصلب الرجل بعد مقتله ..؟ مع أن الإسلام قد حرم المثلة في القتلى. ألم تشفع له سِنُّه ..؟ ألم يشفع له أنه ابن أسماء بنت أبي بكر التي لقبها رسول الله ﷺ بذات النطاقين ..؟ ألم يحسب أي حساب لمكانة جده أبي بكر رضي الله عنه في الإسلام ..؟ هذا العمل يكشف عن نفسية الحجاج الشرسة، والحاقدة، والمحبة للتشفي وإراقة الدماء، فها هو يرسل إلى أم ابن الزبير أن تأتيه، بعد أن قتل ابنها فأبت فأرسل إليها لتأتين أو لأبعثن من يسحبك بقرونك، فأرسلت إليه والله لا آتيك حتى تبعث إلي من يسحبني بقروني، فلما رأى ذلك أتى إليها، وقال: كيف رأيتني صنعت بعبد الله؟ قالت: رأيتك أفسدت عليه دنياه، وأفسد عليك آخرتك.

وقيل: دخل الحجاج عليها، وقال: «إن ابنك قد ألحد في هذا البيت، وإن الله أذاقه من عذاب أليم». قالت: كذبت كان برًّا بوالديه، صوامًا قوامًا، ولكن أخبرنا رسول الله ﷺ أن في ثقيف كذابًا، ومبيرًا، فأما الكذاب فرأيناه، وأما المبير فلا إخالك إلا إياه».

لنتصور معًا هذا الموقف امرأة عجوز في العقد (التاسع من عمرها) فعل بها الدهر ما فعل يُقتل ابنها، ويُصلب ثم يَطلب منها القاتل أن تأتي إليه أو يرسل إليها من يسحبها من شعرها .. أية إنسانية تلك ..؟ وأي احترام لها ولسنها، وهي من هي من مكانة، ومنزلة في الأمة .؟.

***الحجاج في العراق:***

في سنة [٧٥هـ] حج عبد الملك بن مروان، وخطب الناس على منبر النبي ﷺ، فعزل الحجاج عن الحجاز لكثرة الشكايات فيه، وأقره على العراق، التي كانت تعج بالفوضى والاضطراب والفتن، والقلاقل، وتقاعس أهلها عن الخروج إلى الجهاد حيث ركنوا إلى الدعة، والسكون بينما ازداد خطر الخوارج، وقويت شوكتهم بعد أن عجز الولاة عن كبح جماحهم.

سارع الحجاج إلى العراق، وأرسل من أمر الناس بالاجتماع في المسجد. اعتلى منبر مسجدها ملثمًا بعمامة حمراء متقلدًا سيفه متنكبًا قوسه. جلس وأصبعه على فمه ناظرًا إلى المجتمعين، فبدأ صبرهم بالنفاد من صمته حتى قال أحدهم: «لعن الله هذا، ولعن عبد الملك الذي أرسله. أرسل إلينا غلامًا لا يستطيع أن ينطق عيًّا، وحاول البعض أن يحصبه بالحصى، عندها أماط اللثام، وقام إليهم، وألقى خطبته المشهورة ـ التي سأقتطف بعضها ـ قائلًا:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

أما والله فإني لأحمل الشر بثقله، وأحذوه بنعله، وأجزيه بمثله .. أما والله إني أرى رؤوسًا قد أينعت، وحان قطافها، وإني لصاحبها، وكأنني أرى الدماء بين العمائم واللحى.

يا أهل العراق إن أمير المؤمنين استخلفني عليكم، وزودني بسيفين سيف الرحمة، وذاك السيف سقط مني في الطريق، وسيف النقمة وهو سيفي هذا.

والله يا أهل! العراق إن أمير المؤمنين نثل كنانته بين يديه، فعجم عيدانها عودًا عودًا فوجدني أمرها عودًا، وأشدها مكسرًا، فوجهني إليكم، ورماكم بي ... يا أهل العراق يا أهل الشقاق والنفاق، ومساوئ الأخلاق إنكم طالما أوضعتم في الفتنة، واضطجعتم في مناخ الضلال، وسننتم سنن الغي، وايم الله لألحونكم لحو العود، ولأقرعنكم قرع المروة، ولأعصبنكم عصب السلمة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل إني والله لا أحلق إلا فريت، ولا أعد إلا وفيت.

ثم قال: إن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم، وإشخاصكم لمجاهدة عدوكم وعدو أمير المؤمنين، وقد أمرت لكم بذلك، وأجلتكم ثلاثة أيام، وأعطيت الله عهدًا يؤاخذني به، ويستوفيه مني؛ لئن تخلف منكم بعد قبض عطائه أحدٌ لأضربن عنقه.

ونفَّذ الحجاج وعيده بقتل أحد المتخلفين عن الخروج للقتال فتسارع الناس للالتحاق بجيش المهلب بن أبي صفرة الذي كان يُعد لمحاربة الخوارج.

بعد ذلك انطلق الحجاج إلى البصرة تسبقه شهرته في القسوة، والحزم فخطب بهم خطبة زلزلت فرائصهم، وأرجفت قلوبهم، وحذرهم من التخلف عن الالتحاق بجيش المهلب قائلًا: «إني أُنذر ثم لا أُنظر، وأُحذِّر. ثم لا أعذر، وأتوعد ثم لا أعفو ...».

نعم لقد حكم الحجاج العراق بهذا الأسلوب، وهو كاره لأهلها، وهم له كارهون .. واستمرت هذه العلاقة بينهم بالإجبار.

جهز الحجاج جيشًا آخر رديفًا لجيش المهلب، وخرج به إلى منطقة رشتقباذ؛ لينجد المهلب إن احتاج إلى مساعدة لكن حصل ما لم يكن في الحسبان إذ قامت حركة تمرد وثورة في الجيش بقيادة ابن الجارود بعدما عزم الحجاج على إنقاص المحاربين العراقيين [١٠٠]درهم لكن الحجاج استطاع إخماد الثورة، والإجهاز على ابن الجارود، وأصحابه .. وبذلك أحل الأمن والسلام، وهذا ما جعله يتطلع إلى استئناف حركة الفتوحات الإسلامية التي توقفت بسبب الفتن، والثورات التي غلَّت يد الدولة فجهز جيشًا عظيمًا أنفق في إعداده، وتجهيزه أموالًا طائلة حتى إنه أطلق عليه جيش الطواويس، وأمَّر عليه عبد الرحمن بن الأشعث ـ الذي كان صاحب شخصية قوية ويعد من الأبطال الشجعان ـ لغزو بلاد السند وملكهم (رتبيل) دخل الجيش ـ وكان فيه الكثير من القراء والتابعين ـ بلاد الترك وحقق انتصارات كثيرة، واستولى على أراض واسعة، وكان كلما فتح ابن الأشعث بلدًا عين عليه نائبًا، وعندما حل فصل الشتاء، وأحس بأنه توغل كثيرًا توقف ليصلحوا ما بأيديهم من البلاد المفتوحة، ويتقووا مما فيها من غلات ومحاصيل، وكتب للحجاج بذلك، فانزعج الحجاج وسبه وشتمه ووصفه بالجبن، وأمره بمواصلة السير نحو بلاد رتبيل، وإلا فهو معزول عن إمارة الجيش.

جمع ابن الأشعث قواد الجيش، وقال لهم: الرأي ما ترون، ولكني لست بمنفذ أوامره فثار الجند من كل ناحية، وقالوا: «لا بل نأبى على عدو الله الحجاج، ولا نسمع له ولا نطيع»، وتنادوا لخلع الحجاج من إمارة العراق، وقام الناس كلهم فبايعوا ابن الأشعث وقرروا السير لمحاربة الحجاج، وفي الطريق قال بعضهم: إن خلعنا للحجاج خلع لابن مروان، فخلعوهما، وبايعوا ابن الأشعث خليفة، وراح الناس في العراق ينحازون للثورة ليتخلصوا من الحجاج، وتعسفه فعظم أمر الثورة وصار جملة جيش ابن الأشعث (ثلاثة وثلاثين ألف فارس، ومائة وعشرين ألف رجل)، وأعد الحجاج جيشًا يقارب هذا العدد.

اصطدمت مقدمة الجيشين فانتصرت مقدمة ابن الأشعث، فتراجع الحجاج إلى البصرة لإعادة ترتيب أوراقه لكن ابن الأشعث لم يمهله فاقتحم عليه البصرة ففر الحجاج منها هاربًا فخطب ابن الأشعث بالناس، وحضهم على قتال الظالمين ودعاهم للسير لقتال عبد الملك نفسه في الشام فوافقه أهل العراق على ذلك بما في ذلك علماؤها وفقهاؤها وقراؤها، وكان هؤلاء يوصفون بأنهم أشد الناس جلدًا في القتال، وكان شعارهم (يا ثارات الصلاة)؛ لأن الحجاج كان يؤخر الصلاة حتى يخرج وقتها، وهكذا فقد الحجاج البصرة، والكوفة، واهتز وضع الدولة الأموية، وكادت هذه الثورة أن تعصف بالدولة الأموية وتقتلعها من جذورها، عندما رأى عبد الملك ذلك الوضع ورأى تربص الأعداء في بلاد ما وراء النهر أرسل أخاه محمدًا، وولده عبد الله برسالة للثائرين، يقول فيها : «إن كان يرضيكم خلع الحجاج عنكم خلعناه، وجعلنا مكانه محمد بن مروان، وأن يكون عبد الرحمن ابن الأشعث أميرًا على أي بلد يحب».

انزعج الحجاج من هذا الكلام انزعاجًا عظيمًا، وحذر عبد الملك من غدر أهل العراق، وذكره بما جرى لعثمان بن عفان عندما استجاب لرغبات أهل العراق، وخلع

عنهم سعيد بن العاص، وكيف أنهم لم يقنعوا بذلك حتى ساروا إليه وقتلوه. ارتأى ابن الأشعث أن هذا الطرح حل مناسب لما فيه من خيرٍ، وحقنٍ للدماء، وعزلٍ للحجاج الظالم لكن أهل العراق رفضوا تلك المبادرة، وظنوا أن عبد الملك قد رضخ لمطالبهم بسبب ضعفه.

عندما رفض الثوار هذا العرض أمر عبد الملك الحجاج أن يواصل قتالهم، ويكون هو الأمير على الجميع اتبع الحجاج في حربه سياسة النفس الطويل، والمصابرة فصف جيشه أمام جيوش الثائرين، ونشبت حرب أشبه ما تكون بحرب الاستنزاف بين الفريقين التقى فيها الجيشان بضعًا وثمانين مرة كان فيها النصر لابن الأشعث لكن الحجاج كان ثابتًا في مكانه صابرًا، ومصابرًا لا يتزحزح عن موضعه، وإذا تقدم شبرًا لا يتراجع عنه.

واخيرًا قرر القيام بعمل ينهي هذه الثورة العاتية فأمر جنوده بالحمل مرة واحدة على موضع قوة جيش ابن الأشعث، وهم كتيبة القراء وركز هجومه على هذه الكتيبة حتى قتل منهم خلقًا كثيرًا، وكان ذلك سبب انهزام الجيش الذي اضطرب نظامه واختلت صفوفه، وفروا في كل اتجاه وفر ابن الأشعث إلى رتبيل مستجيرًا به. لاحق جيش الحجاج فلول الجيش المنهزم، وأعمل فيهم القتل والأسر، وعمل على استرجاع البلاد التي دخلت في طاعة ابن الأشعث.

أطلق على هذه المعركة الساحقة موقعة دير الجماجم، وظل الحجاج يتتبع كل من خرج مع ابن الأشعث وأمعن فيهم القتل حتى قيل: إنه قد قتل منهم بين يديه (مائة وثلاثين ألفًا) آخرهم سعيد بن جبير.

استمرت تلك الحرب (حوالي ثلاث سنوات ٨١ ـ٨٣هـ/ ٧٠٠ـ٧٠٢م) قتل فيها خلق كثير لكنني لم أستطع الحصول على أرقام دقيقة تبين أعداد القتلى الذين سقطوا

بحرب بين أبناء الجلدة الواحدة، والدين الواحد تلك حرب قامت بين الإخوة، والأشقاء وأبناء العمومة كادت تودي بالجميع ومن أجل ماذا ..؟ هنا السؤال .. من أجل ماذا ..؟ وما هي أسباب هذه الحرب الطويلة المضنية ..؟ لعل السبب المباشر الذي قرأناه سابقًا أن الحجاج أمر ابن الأشعث بمتابعة الفتح في بلاد الترك بينما رأى ابن الأشعث، وهو القائد الميداني التريث كما ذكرنا بسبب حلول فصل الشتاء، وللتمكين في البلاد التي تم فتحها وللتزود بالمؤن استعدادًا لمتابعة الزحف في العام المقبل، وهذا الرأي كان رأيًا مصيبًا، لكن دكتاتورية الحجاج، وعجرفته، واستبداده برأيه أشعل فتيل هذه الثورة، ولو أنه استعمل الحكمة، والروية لما كانت هذه الثورة، ولا تفرقت كلمة الأمة، ولا انشغلت الدولة لثلاث سنوات برتق ذلك الشرخ الذي كاد يقضي على الأمة، ولا سالت تلك الدماء الغالية من الإخوة، ولا فقدوا قسمًا كبيرًا من العلماء، والفقهاء والقراء من التابعين وباقي المسلمين. هنا أقول: إن حزم الحجاج في هذه المسألة كان في غير موضعه، ولو أنه استعمل حنكته السياسية لوفر الكثير من الدماء، والطاقات التي هدرت سدى، والجهد الذي صرف في غير موضعه.

كذلك الأمر لو أن ابن الأشعث كان حازمًا في قيادته حين رضي بطرح عبد الملك، وكان هذا الطرح منصفًا وينهي المشكلة بإقالة الحجاج لكنه رضخ لمطالب البعض وأهوائهم، وتابع ثورته التي فقدت مضمونها وأفضت في النهاية إلى مقتله على يد رتبيل أو انتحاره، كما جاء في بعض المصادر.

إذن أستطيع أن أقول كذلك: إن هناك أسبابًا مهمة ورئيسية في تلك الحروب الداخلية، وكان من أهمها هو ظلم الحاكم ... نعم ظلم الحجاج وتعسفه. قد تفيد الشدة حينًا، وقد تفضي أحيانًا إلى نوع من الاستقرار، وانتشار نوع من الأمان يفرضه الخوف

من بطش الحاكم وتعسفه. لكن في الخفاء وخلف الأكمة، وداخل النفوس تتأجج براكين من القهر والسخط، ولابد لهذا الخوف أن يتبدد يومًا، ولابد لشمس الحرية أن تسطع.

لذا تقوم الثورات محاوِلةً إزالة الظلم، والطغيان؛ وذلك لأن الإنسان قد فطر على مقته، وكرهه للظلم، وحبه للحرية ...

***الفتوحات في زمن الحجاج:***

بعد إخماد الثورات، والفتن عاود الحجاج سياسة الفتح، وأرسل جيوشًا متتابعة واختار لها قادة أكفاء مثل قتيبة بن مسلم الباهلي الذي فتح مساحات كبيرة حتى وصل إلى تخوم الصين، وأصبح كثير من مدنها مراكز هامة للحضارة الإسلامية مثل بخارى وسمرقند. كذلك أرسل قريبه محمد بن القاسم الثقفي لفتح بلاد السند، وكان شابًّا عمره [١٧ سنة]، ولكنه كان قائدًا عظيمًا استطاع فتح مدن، وادي السند (باكستان حاليًا) واستأذن الحجاج في فتح المنطقة الممتدة بين السند، والبنغال فأجابه إلى طلبه، وقال له: «سر فأنت أمير ما افتتحته»، في تلك الفترة مات الحجاج، وتوقف الفتح فقال البعض: لو عاش الحجاج لأكمل قتيبة فتح الصين كلها، ولأكمل ابن القاسم فتح الهند.

***إصلاحات الحجاج:***

بنى مدينة واسط بين الكوفة والبصرة وجعلها قاعدة إمارته، وأمر بإنشاء الجسور وأنشأ صهاريج لتخزين مياه الأمطار، وأمر بحفر الآبار في المناطق المقطوعة ومنع هجرة أهل الريف إلى المدن، وأمر بقتل الكلاب الضالة، ومنع التبول أو التغوط في الأماكن العامة، كذلك أمر بعدم النوح على الموتى في البيوت، ومن أهم إنجازاته تعريب الدواوين حيث تمكن العرب من شغل الوظائف الإدارية بعد أن كانت حكرًا على الفرس، ونجح في إصدار الدراهم العربية، وضبط معيارها، ومن أَجَلِّ أعماله أنه ندب نصر بن عاصم

الليثي، ويحيى بن يعمر العدواني للقيام بتنقيط المصحف وتشكيله؛ وذلك تنفيذًا لأمر الخليفة عبد الملك كذلك أخذ الناس بقراءة عثمان بن عفان، وترك غيرها من القراءات.

**وفاة الحجاج:**

توفي الحجاج ـ بعد أن حكم العراق عشرين عامًا ـ في العشر الأخير من رمضان (٩٥هـ/ ٧١٤م) إثر إصابته بمرض عضال في معدته، وترك وصيته التي قال فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به الحجاج بن يوسف: أوصى بأنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأنه لا يعرف إلا طاعة الوليد بن عبد الملك عليها يحيا وعليها يموت، وعليها يُبعث ...الخ».

وقال الأصمعي: لما حضرت الحجاج الوفاة أنشأ، يقول:

يارب قد حلف الأعداء واجتهدوا بأنني رجل من ساكني النار

أيحلفون على عمياء؟ ويحهم ما علمهم بكريم العفو غفار

ونسب إليه أنه قال عند الموت: «اللهم اغفر لي، فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل».

**عزيزي القارئ:**

أترك لك التأمل والتعليق على هذه الشخصية بما حملته من صفات موجبة وسالبة لتصفها الوصف المناسب، وفق ما قامت به من أعمال الاستئصال لكثير من المعارضين، ووفق ما قامت به من أعمال كان لها الأثر الكبير في رسم التاريخ الإسلامي والإنساني.

لكن وبكل صدق، ومحبة، وإخلاص تعال لأصرخ أنا وأنت، ونعلي الصوت قائلين: لا تكونوا طغاة وأوقفوا القتل ..

واخيرًا: أتساءل بيني وبين نفسي أنني لو كنت في زمانه، وداخل إيوانه هل أستطيع أن أقول له: أوقف القتل يا حجاج ..!!! هل أستطيع ..؟

**٢ـ أبو مسلم الخراساني:**

لابد لنا بادئ ذي بدء من الاطلاع، ولو بشكل مقتضب على الجو العام الذي كان يسود ذلك العصر الذي غربت فيه شمس الحكم الأموي قسرًا، وبزغت شمس الدولة العباسية قهرًا.

وسنذكر بعض الأسباب التي أضعفت الحكم الأموي، وهيأت المناخ للعباسيين:

لقد كان الحكم الأموي حكمًا عربيًا صرفًا، تعصب للعرب، والعربية، واعتبر العنصر العربي أفضل من غيره، ولغته أرقى اللغات، ونظر للموالي نظرة فوقية مما زرع الفتنة بين المسلمين، وأدى إلى سخط الموالي ومحاولتهم التخلص من هذا الوضع بالانخراط في الثورات التي قامت ضد الحكم الأموي كثورة المختار، وثورة عبد الرحمن ابن الأشعث، ولما نشط دعاة العباسيين انضموا إليهم ابتغاء نيل حقوقهم المهضومة.

ولم تقتصر هذه القلاقل على الموالي فقط بل إنها امتدت أيضًا إلى العرب أنفسهم فنشأت نزاعات عصبية قبلية بين عرب الشمال المضريين، وعرب الجنوب اليمنيين، وهذا ما خلق شروخًا عميقة في بناء الدولة فتَّ من عضدها وأضعفها.

**النشأة والصفات:**

أبو مسلم الخراساني اسمه عبد الرحمن بن مسلم، ويقال: عبد الرحمن بن يسار الخراساني، ولد سنة [١٠٠هـ] في ماه بالبصرة، وهو مملوك لعيسى، ومعقل ابني إدريس العجلي، ربياه إلى أن شب فسمع من عيسى السراج، وحفظ عنه ذكر القاضي شمس الدين بن خلكان شيئًا من صفاته، فقال: «كان قصيرًا، أسمر، جميلًا، حلوًا، نقي البشرة، أحور العينين، عريض الجبهة، حسن اللحية، طويل الشعر، .. خافض الصوت، فصيحًا بالعربية والفارسية، حلو المنطق، وكان راوية للشعر، عارفًا بالأمور، لم يُر ضاحكًا، ولا

مازحًا إلا في وقته، وكان لا يكاد يقطِّب في شيء من أحواله، حتى تأتيه الفتوحات العظام فلا يظهر عليه السرور، وتنزل به الفادحة الشديدة، فلا يرى مكتئبًا، وكان إذا غضب لم يستفزه الغضب، وكان لا يأتي النساء في العام إلا مرة، إشارة إلى شرف نفسه، وتشاغلها في الملك».

ولقد تكلم أحد أصدقاء أبي مسلم عن طلبه للعلم، قائلًا: «كنت أطلب العلم فلا آتي موضعًا؛ إلا وجدت أبا مسلم قد سبقني إليه، فألفته فدعاني إلى منزله، ودعا بما حضر. ثم لاعبته بالشطرنج، وهو يلهو بهذين البيتين:

| | |
|---|---|
| ذروني ذروني ما قَرَرْتُ فإنني | متى ما أُهِجْ حربًا تضِقْ بِكُمُ ارضي |
| وابعث في سود الحديد إليكم | كتائبَ سُودًا طالما انتظرت نهضي |

قال رؤبة بن العجاج: «كان أبو مسلم عالمًا بالشعر، وقد نسب إليه البيت التالي:

| | |
|---|---|
| محا السيفُ أسطارَ البلاغة وانتحى | عليك ليوث الغاب من كل جانبِ |

قاله: عندما أحرق كتاب عبد الحميد الكاتب، وكان قد كُتب إليه أثناء حصاره لآخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد.

وقال محمد بن زكويه : «روي لنا أن أبا مسلم صاحب الدولة، قال: «ارتديت الصبر، وآثرت الكتمان، وحالفت الأحزان، والأشجان، وسامحت المقادير والأحكام، حتى أدركت بغيتي». ثم أنشد:

| | |
|---|---|
| قد نلت بالحزم والكتمان ما عجزت | عنه ملوك بني مروان إذا حشدوا |
| ما زلت اضربهم بالسيف فانتبهوا | من رقدة لم ينمها قبلهم أحدُ |
| طفقت اسعى عليهم في ديارهم | والقوم في ملكهم بالشام قد رقدوا |
| ومن رعى غنمًا في ارض مسبعة | ونام عنها تولى رعيها الأسد |

لقد كان المؤرخون يقارنونه بالحجاج بن يوسف الثقفي، في كثرة القتل: ففي حروبه ومعاركه أفنى خلقًا كثيرًا، وكان يأخذ الناس بالظنة، وأجرى مذهب القتل فيمن خالف سلطانه، ولم يكن له صاحب أو مؤتمن كما كان لا يضحك، ولا تبدو في وجهه علامات السرور، وهو أول من سن للدولة لبس السواد.

سئل عبد الله بن المبارك، وقد رأى أبا مسلم، وسمع منه أهو خير أم الحجاج؟ فقال: «لا أقول إن أبا مسلم كان خيرًا من أحد، ولكن كان الحجاج شرًّا منه».

قال المأمون: «أجلُّ ملوك الأرض ثلاثة، وهم الذين قاموا بنقل الدول: الإسكندر المقدوني، وأردشير، وأبو مسلم الخراساني».

***أبو مسلم والدعوة للعباسيين:***

قدم الكوفة جماعة من نقباء الإمام محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، والد السفاح والمنصور فدخلوا على الأخوين عيسى، ومعقل ابني إدريس العجلي يسلمون عليهما فرأوا عندهما أبا مسلم فأعجبهم عقله، وأدبه وكلامه، ومال هو إليهم ثم إنه عرف أمرهم ودعوتهم إلى بني العباس، فلزمهم وسار بصحبتهم إلى مكة، وعندما مات الإمام محمد أحضروا إلى الإمام إبراهيم (عشرين ألف دينار، ومئتي ألف درهم)، وأهدوا له أبا مسلم، فأعجب به إبراهيم حين لمس فيه إخلاصًا، وحماسة، وشجاعة، فقربه، ووصفه قائلًا: «هذا عُضْلة من العُضَل ... وبعد أن اختبره، قال: إني جربت هذا الأصبهاني وعرفت ظاهره، وباطنه فوجدته حجر الأرض، فأقام أبو مسلم يخدم الإمام إبراهيم إلى أن أرسله ليدعو للعباسيين في خراسان».

**وكانت أهم أهداف هذه الدعوة:** إعادة الأمور إلى ما كانت عليه أيام الخلفاء الراشدين، والمساواة بين الشعوب ، وأنه لا فرق بين العربي وغيره، والدعوة للرضا من آل البيت، والدعوة إلى الإصلاح، واتخاذ الكتاب والسنة أساسًا لحكم المسلمين، وقد كانت هذه المبادئ كفيلة بأن تستقطب الكثيرين وخاصة الموالي.

يقال إن الإمام إبراهيم بن محمد أوصى أبا مسلم وصية صريحة: بأنه إذا استطاع ألا يدع في خراسان عربيًّا (لا يدخل في أمره، إلا ضرب عنقه)، فليفعل، وأن يقتل كل غلام بلغ خمسة أشبار بتهمة.

وروي أنه وقع كتاب في يد الخليفة الأموي مروان بن محمد من إبراهيم بن محمد ابن علي بن عبد الله بن العباس إلى أبي مسلم يوصيه فيه بقتل كل من يتكلم العربية في خراسان مما دعا مروان بن محمد إلى إلقاء القبض على إبراهيم، وإيداعه السجن. ثم أمر بقتله داخله.

وهكذا انطلق أبو مسلم إلى خراسان على حمار له وهو ابن (التاسعة عشر من العمر) واستطاع تسلم القيادة رغم معارضة شيخ الدعوة سليمان بن كثير؛ وذلك لحداثة سن أبي مسلم لكنه أظهر براعة فائقة في قيادة العمل السري للدعوة، وكان ذا مقدرة عالية على الحوار، والإقناع، فأقنع الكثير من ولاة الأمويين، واستمالهم للدعوة العباسية، ولما استشعر أنه أصبح قويًّا، ولديه من العدد البشري ما يكفي لإعلان دعوته أعلنها في إحدى قرى مرو (عاصمة خراسان سنة ١٢٩هـ) حيث أصبحت مركز تجمع، وقاعدة للراغبين في هذه الثورة، ورفع على حصنها راية السحاب، إشعارًا بظهور الدولة العباسية وأمر سليمان بن كثير أن يصلي بهم صلاة عيد الفطر.

***إشهار الدعوة للعباسيين وبدء الصراع المسلح:***

وفي اليوم نفسه الذي صلوا فيه صلاة عيد الفطر كتب أبو مسلم إلى والي خراسان نصر بن سيار (عامل الأمويين) يدعوه للدخول في طاعة العباسيين، فأرسل له نصر جيشًا كبيرًا لكن أبا مسلم انتصر عليه في موقعة ألين [سنة ١٣٠هـ]، وكان هذا أول صدام بين العباسيين، والأمويين. هذا النصر أغاظ العرب المتواجدين في خراسان مما جعلهم يتحدون في مواجهة أبي مسلم لكن هذا القائد الفتى استطاع بثباته، ومكره ودهائه،

وعظم كيده أن يوقع بين القبائل العربية ويعيدها للتناحر فيما بينها في ذلك الوقت كان قواده يستولون على القرى، والمدن من عمال نصر بن سيار بلا مقاومة تذكر.

كان أبو مسلم يصالح بعضهم على الآخر ويضرب هذا بذاك حتى قضى على الجميع بالمكر، والغدر، وبذلك خضعت له مرو كلها [١٣١هـ] فأخذ البيعة للعباسيين فيها وصارت بلاد خراسان كلها عباسية، ومركزًا لانطلاق الجيوش العباسية إلى باقي بلاد الخلافة الأموية بعد أن هزم نصر بن سيار واضطره إلى الانسحاب. لاحقته الجيوش الخراسانية ساعية وراءه لكنه مات في الطريق في قرية ساوة بنواحي الري [١٣١هـ] وقد تجاوز الثمانين من العمر، وكان قد أمر أولاده أن يلحقوا بالشام، وكان ينشد لما أبطأ عنه المدد الأموي:

| | |
|---|---|
| أرى خلل الرماد وميض نار | خليق أن يكون لها ضرامُ |
| فإن النار بالزندين تورى | وأن الفعل يقدمه الكلام |
| وإن لم يطفها عقلاء قوم | يكون وقودَها جثثٌ وهام |
| أقول من التعجب ليت شعري | أيقظان أمية أم نيام |

واصلت الجيوش الخراسانية زحفها نحو العراق بقيادة قحطبة بن شبيب فاضطر عامل العراق يزيد بن هبيرة إلى التقهقر نحو مدينة واسط والتحصن بها حوالي أحد عشر شهرًا، ولما تيقن من هلاك الخليفة مروان بن محمد استسلم، ومن معه، ولكن غُدر به وقتل هو، والعديد من أمرائه.

### القضاء على الحكم الأموي:

في (ربيع الأول سنة١٣٢هـ) بويع أبو العباس السفاح بالخلافة في الكوفة، فسار الخليفة مروان بن محمد قاصدًا العراق في مئة ألف فارس حتى نزل الزابين دون الموصل فجهز السفاح له عمه عبد الله بن علي، والتقى الجيشان فهُزم جيش مروان بن محمد،

وتقهقر فاجتاز الفرات، وقصد الشام ليتقوى ويعيد الكرة، لكن عبد الله بن علي جدَّ في طلبه حتى طرده عن دمشق، وأخذها بعد أيام وبذل السيف، وقتل بها في ثلاث ساعات نحوًا من خمسين ألفًا معظمهم من جند بني أمية، فهرب مروان إلى مصر في عسكر قليل فلاحقوه حتى وجدوه في قرية بوصير في الصعيد، فقاتلهم حتى قتل فاحتز رأسه رجل من أهل البصرة، فنادى قائد الكوكبة العباسية: «أن أخرجوا إليَّ كبرى بنات مروان فأخرجوها، وهي ترتعد، فقال لها: لا بأس عليك، فقالت: أي بأس أعظم من إخراجك إياي حاسرة من حيث لم أر رجلًا قط، فأجلسها ووضع رأس والدها في حجرها فصرخت واضطربت، وطيف بالرأس في البلدان، ونصب على باب مسجد دمشق وأرسل بعدها إلى السفاح، وهرب ابنا مروان إلى بلاد النوبة».

ويذكر ابن الأثير أن عبد الله بن علي عم السفاح أمر بنبش قبور بني أمية في دمشق وأحرق رفاتهم، ومثل بهم، وبالغ العباسيون في التنكيل ببني أمية وعولوا على استئصال شأفتهم، فتعقبهم أبو جعفر، وأعمامه في البصرة، والكوفة، والشام، ومصر ولم يفلت من أبناء الأمويين أحد، إلا من هرب إلى الأندلس، واستولى العباسيون على أموالهم، وأملاكهم، وكان العفو أقرب للتقوى ولهم في رسول الله ﷺ أسوة حسنة عندما عفا عن أهل مكة وقال: «اذهبوا فانتم الطلقاء» لكن الذي حصل هو العكس تمامًا إذ كانت العملية ليست عملية إقصاء وإبعاد، وإنما كانت عملية إبادة، واستئصال مخيفين بين أبناء البطن الواحد (بني عبد مناف)، والقبيلة الواحدة (قريش)، والجلدة الواحدة (العرب)، والدين الواحد (الإسلام)، وهذا ما يدعو المرء للاستغراب والتساؤل لمَ هذا الحقد ..؟ ولمَ هذه الإبادة ..؟، ولمَ هذا التمثيل ونبش القبور ..؟ أي أناس أولئك ..؟! أمن أجل كرسي حكم تزهق كل تلك الأرواح ..؟! وتسيل كل تلك الدماء... آه ما أرخصك أيها الإنسان أمام صنم الملك والسلطان ..!!!.

قال بعض العلويين: «فرحنا بمصير الأمر إليهم (أي: بني العباس)، ولكن والله ساءنا ما جرى لما جرى من سيول الدماء، والسبي والنهب؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون فالدولة العادلة دولة تحفظ الأمن، وتحقن الدماء لا دولة تنتهك دونها المحارم .. وأنى لها العدل؛ بل أتت دولة أعجمية خراسانية جبارة ما أشبه اليوم بالبارحة ..».

***أبو مسلم في خراسان:***

نعود إلى أبي مسلم الذي مهد في خراسان لقيام الدولة العباسية، وأرسى قواعدها بعد أن قتل من قتل، وأسال من الدماء ما لا حصر له، هذا مما أثار عليه البعض، فخرج عليه عام [١٣٣هـ] شريك المهري ببخارى إذ نقم على أبي مسلم كثرة قتله وإسالته للدماء، وقال: «ما على هذا اتبعنا آل محمد، فتبعه ثلاثون ألفًا ممن نقموا على أبي مسلم وأفعاله لكن أبا مسلم قاتله وقتله وفرق جمع أصحابه، وصارت له المكانة العظيمة عند الخليفة السفاح حيث إنه كان يستشيره في كثير من الأمور الهامة حتى إنه أرسل إليه أخاه أبا جعفر المنصور، ليأخذ رأيه في قتل (أبي سلمة الخلال)، وزيرهم لما أحسوا منه بعض ولاء للعلويين، وأنه بايع السفاح بالخلافة مرغمًا، فقال لهم أبو مسلم: أنا أكفيكموه، فدعا مرار بن أنس الضبي، فقال: انطلق إلى الكوفة فاقتل أبا سلمة حيث لقيته، قال: فقتله بعد العشاء، وكان يقال له وزير آل محمد [١٣٣هـ].

هذه القوة، وهذا الجبروت جعل أبا جعفر، يقول للسفاح: لستَ خليفة ولا أمرك بشيء إن تركت أبا مسلم، ولم تقتله، قال: وكيف؟ قال: ما يصنع إلا ما يريد، قال: فاسكت واكتمها. لكن أبا جعفر كان يؤكد عليه، ويقول: يا أمير المؤمنين أطعني، واقتل أبا مسلم فوالله إن في رأسه لغدرة، فقال: يا أخي! قد عرفت بلاءه وما كان منه .. وأبو جعفر يراجعه لكن السفاح كان يضع في حسابه أن الدولة ما زالت وليدة ولا يريد إثارة المشاكل ضده، وهو يعرف ما لأبي مسلم من قوة ونفوذ في خراسان.

كذلك خرج على أبي مسلم زياد بن صالح الخزاعي عام [١٣٥هـ] وهو من كبار قواد أبي مسلم، وعسكر بما وراء النهر وكان قد جاءه عهد بولاية خراسان من السفاح، وأن يغتال أبا مسلم إن قدر عليه فظفر أبو مسلم برسول السفاح وقتله. ثم تفرقت عن زياد جموعه ولحقوا بأبي مسلم فلجأ زياد إلى دهقان فقتله غيلة، وجاء برأسه إلى أبي مسلم.

وهكذا توطدت سلطة أبي مسلم في خراسان بعد قضائه على منافسيه من رجال العرب وسحقه كثيرًا من الانتفاضات التي قادها دعاة عباسيون انقلبوا على الثورة أو من أنصار العلويين، ومن أهم من قتلهم نقيب نقباء الدعوة العباسية سليمان بن كثير الخزاعي الذي كان يعتبره منافسًا له.

في سنة [١٣٦هـ]، بعث أبو مسلم إلى السفاح يستأذنه في القدوم، فأذن له واستناب على خراسان خالد بن إبراهيم، فقدم في هيئة عظيمة فاستأذن في الحج، فقال له السفاح لولا أن أخي يريد الحج لوليتك الموسم. ثم حج أبو جعفر وأبو مسلم معًا، وزاحم موكبُ أبي مسلم موكبَ المنصور، وذلك لكثرة ما بذل، وأعطى للحجاج، فامتعض أبو جعفر، وكمنها له، وكان أبو مسلم قد بدأ يشعر أنه لولاه ما كانت الدعوة العباسية، ولا قامت الدولة، وأنه قرين الخليفة، بل هو أولى منه بالأمر، وكان أبو مسلم مجهول النسب، فادعى انتسابه إلى سليط بن عبد الله بن عباس كخطوة أولى لطلبه الخلافة. ثم خطب عمة المنصور آمنة بنت علي.

وفي طريق العودة من الحج أتاهما خبر وفاة السفاح بالجدري فولي الخلافة أبو جعفر، فلم يكتب أبو مسلم يهنئه بالخلافة، فعرف المنصور أنه ينوي الخلاف.

**خلافة أبي جعفر المنصور:**

إن حقد أبي جعفر على أبي مسلم لم يمنعه بعد أن تولى الخلافة من الاستعانة به في القضاء على عمه عبد الله بن علي الذي خرج عن طاعته، وأخذ البيعة بالخلافة لنفسه في مدينة حرّان بالجزيرة، فرأى أن يضرب عمه عبد الله بن علي بأبي مسلم حتى يقضي أحدهما على الآخر. ثم يتفرغ لمن بقي منهما بعد أن تكون قوته قد أنهكت وبالفعل نجحت الفكرة الذكية فدارت الحرب بين أبي مسلم، وعبد الله بن علي ودامت نحو ستة أشهر، تمكن فيها أبو مسلم من الانتصار على خصمه سنة [١٣٧هـ]، وازداد اعتداد أبي مسلم بنفسه حتى إنه أصبح عندما يأتيه كتاب من أمير المؤمنين فيقرؤه. ثم يلوي شدقه على سبيل السخرية منه، وعندما أرسل المنصور رجلًا من عنده يحصي الغنائم المأخوذة من جيش عبد الله بن علي غضب أبو مسلم، وقال: «أكون أمينًا على الدماء، ولا أكون أمينًا على الأموال؟!.. فكانت تلك شرارة الخلاف العلني الذي جعل المنصور يفكر بقص جناحي أبي مسلم، وسحب البساط من تحت قدميه، فكتب له كتابًا يوليه فيه الشام ومصر ليصرفه عن خراسان قاعدته التي فيها أنصاره لكن أبا مسلم، قال: يوليني الشام ومصر، وخراسان لي!!».

لذلك قرر العصيان فخرج من الجزيرة غاضبًا متجهًا إلى خراسان من غير أن يمر على الخليفة ببغداد لاستئذانه بالعودة كما جرت العادة بذلك، ودارت بينه وبين المنصور مكاتبات، ورسائل لم تفضِ إلى شيء فرأى المنصور إعمال الحيلة فكاتب خليفة أبي مسلم في خراسان، ووعده أن يعطيه، ولاية خراسان طوال حياته. ثم أرسل إلى أبي مسلم رسالة تهديد، قال «فيها: إنه بريء من العباس إذا لم تأتني ولو كنت في آخر بلاد الدنيا لتجشمت الصعاب حتى آتيك، ولو كنت في النار لاقتحمتها حتى أقتلك أو أموت دونك».

كان لهذه الكلمات أثر الزلزال في نفس أبي مسلم فاحتار في أمره أيطيع أم يعصي ..؟ في ذلك الوقت، وصله كتاب من نائبه على خراسان، وكان المنصور قد استماله، يقول له فيه: «إننا لم نخرج؛ إلا طاعة لله وأهل بيت رسول الله، ولم نخرج لمخالفة خلفائنا، فأطع الخليفة فيما أمرك به»، فازداد أبو مسلم همًّا، وغمًّا، وحيرة.

واخيرًا قرر الذهاب إلى المنصور في المدائن. عندما علم المنصور؛ بأن أبا مسلم قادم إليه أمر وجوه الناس، وبني هاشم أن يستقبلوه في الطريق ويبالغوا في الاحتفال به، حتى يطمئن ويذهب نية الغدر من قلبه ثم أمر أربعة من الحراس أن يقفوا وراء الستائر، حتى إذا سمعوه يصفق بيديه خرجوا وقتلوه، فلما دخل أبو مسلم على المنصور انبسط له المنصور في الحديث، حتى ظن أبو مسلم أنه ناج.

ثم بدأ المنصور يعاتبه في أشياء صدرت عنه مثل: تقدمه في طريق الحج، وعدم تهنئته بالخلافة، وخطبته لعمته آمنة بنت علي وادعائه أنه ولد سليط بن عبد الله بن عباس، ومخالفته لأمره وعصيانه عليه بخراسان، وأبو مسلم يجيب عن هذه المعاتبات بصورة جيدة حتى وصل المنصور لسؤاله عن سبب قتله لسليمان بن كثير، وإبراهيم بن ميمون، وغيرهم فقال أبو مسلم: «لأنهم عصوني وخالفوا أمري»، وعندها استشاط المنصور غضبًا، وقال له: «أنت تقتل إذا عُصيت، وأنا لا أقتلك، وقد عصيتني؟ فقال له أبو مسلم: استبقني لأعدائك يا أمير المؤمنين، فقال المنصور: وأي عدو لي أعدى منك».

ثم صفق بيديه فخرج الحراس، وقتلوا أبا مسلم، وقطعوه إربًا إربًا. ثم وقف المنصور عليه، وهو قتيل، فقال له: «رحمك الله يا أبا مسلم! بايعتنا فبايعناك، وعاهدتنا فعاهدناك، ووفيت لنا فوفينا لك، وإنا بايعناك على ألا يخرج علينا أحد في هذه الأيام إلا قتلناه، فخرجت علينا فقتلناك، وحكمنا عليك حكمك على نفسك لنا».

وهكذا قُتل أبو مسلم الخراساني، وأُلقيت جثته في دجلة بعد أن قَتل أكثر من ستمائة ألف نفس، لقد قَتل وقتل، وسفك من الدماء الكثير في سبيل إرساء ملك بني العباس، فكان اليد الطويلة ذات القبضة الحديدية التي نفذت لهم ما نفذت لكنه في النهاية شرب من الكأس نفسها التي كان يسقيها للناس، فكانت نهايته على يد من قتل من أجلهم، فأي فائدة جنى ..؟».

يحار المرء في تفسير بعض التصرفات الغريبة التي تصدر عن بعض بني البشر أيام الثورات، والانتفاضات تصرفات قد لا تنتمي إلى الإنسانية في شيء، وقد لا تفعلها حتى حيوانات الغابة، فما الداعي لنبش القبور، والتمثيل بالجثث وحرقها .. بالله عليكم ماذا تفيد مثل هذه الأعمال ..؟ وما الداعي لقتل آلاف الجنود بعد أن قتل قادتهم أو فرّوا..؟ وماذا بيد جندي أن يفعل، وقد أصبح بلا قائد ..؟ بل تعالوا لنسترجع معًا مشهد وضع رأس مروان ابن محمد في حجر ابنته، ونستشعر الأحاسيس، والمشاعر التي انتابتها في تلك اللحظة، وهي ترى رأس أبيها في حجرها مفصولًا عن جسده، والدماء تسيل من رقبته المجذوذة أية إنسانية تلك ..؟ وأي إجرام بشع ذاك ..؟ قد يجد المرء كلماته عاجزة عن وصف ذلك العمل.

كذلك تعالوا لنستكشف معًا أي حقد ذاك الذي دفع عساكر العباسيين لملاحقة مروان بن محمد من بلاد الشام إلى صعيد مصر مع بُعد المسافة، ومشقة السفر ليقتلوه، وقد ترك لهم الرجل البلاد وكرسي الحكم، وهرب بعيدًا يطلب النجاة لروحه وأهله.

تعالوا لنتساءل ما الداعي لأن يحمل رأسه ويطاف به في البلدان ..!! لابد أنه الحقد الأسود الأعمى الذي يعمي البصر، والبصيرة ويطيش العقول، ومن أجل ماذا ..؟ من أجل كرسي حكم مادام لأحد، ولن يدوم .. ومع ذلك بُذلت في سبيله مئات الآلاف من الأرواح والأنفس ... وهذا ما يدعوني لأعود، وأقول: ما أرخصك أيها الإنسان أمام صنم الملك والسلطان ..!!!.

يتساءل المرء ما هو الداعي لاستئصال من له فكر مغاير لفكرنا ..؟ هل من الضروري الحكم عليه بالفناء، والإبادة ..؟ ألم يخلق الله لنا عقلًا لنفكر به، ولسانًا ناطقًا لنتحاور به، فنوجد الحلول لما يطرأ على مجتمعاتنا من مشاكل ومعضلات؛ ألا توجد حلولٌ وسطيةٌ تجمع الأطراف المتنازعة ..؟ أم أن العقول أصبحت صحراء قاحلة مجدبة؟ وهل أصبحت الأرض صغيرة لا تتسع للجميع ..؟ لذا كان لابد من اتباع سياسة إقصاء الآخر وإبعاده .. وبذلك تكون النتيجة أن تخلو الساحة لطرف واحد يفعل ما يشاء بلا منازع مما يدفعه للاستبداد، والطغيان.

أقول: عندما يُكمم أحدهم أفواه معارضيه، ويقصيهم فلابد لنا أن ندعوه بالطاغية لكن ماذا عسانا ندعو من يستأصل الآخر، ويبيده نهائيًا ..؟!.

اخيرًا، اسمحوا لي أن أعود وأستصرخ الإنسان فينا ليصحو، ويعامل أخاه الإنسان كما يليق أن يُعامل به، ولنُعمل العقول الناضجة التي ميزنا الله بها فهي كفيلة بأن توصل الجميع إلى بر الأمان، وتحقن الكثير من الدماء، فيتحقق الأمن والطمأنينة ويسود السلام وتعرّش المحبة بين بني البشر.

من المؤكد أخي الإنسان أن أحدًا منا لم يسمع يومًا عن ملك من الملوك مهما عَظُم وكَبُر أنه أخذ كرسي ملكه معه يوم رحل عن هذه الدنيا ..!! بل بالتأكيد تركه لغيره رغم أنفه.. والحقيقة التي يجب أن لا ننساها أبدًا أننا قد خُلقنا من التراب، وسنعود إليه رغم أنوفنا أيضًا ..

المراجع:


- تاريخ الطبري.
- البداية والنهاية، لابن كثير.
- الدولة الأموية، د. علي محمد الصلابي.
- تاريخ الخلفاء، للسيوطي.
- العقد الفريد، لابن عبد ربه.
- تهذيب تاريخ دمشق.
- الكامل في التاريخ، لإبن الأثير.
- تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي.
- سير أعلام النبلاء، للحافظ الذهبي.

## ٧- يوم قتل السلام في مدينة السلام

مدينة السلام ... القدس ... تلك المدينة التي تمثل الإشعاع الروحي للديانات الثلاث، وتخفق القلوب بحبها، يدعي ملكيتها كلٌّ لنفسه، وأحقيته بها دون غيره.

مدينة تضرب في أعماق التاريخ، بناها العرب اليبوسيون، حيث استوطنوا فيها حوالي سنة [٤٠٠٠ ق.م] في بيوت من الشعر، وفي الكهوف الصخرية، وفي عام [٣٠٠٠ق.م] أنشؤوا أول حصن لهم على تل الضهور بالقدس (المعروف بتل أوفل) وأقاموا بيوتًا لهم أطلقوا على التل اسم يبوس، وكان يطلق عليها أيضًا اسم (أورسالم) أي مدينة السلام.

لكن مدينة السلام هذه تعرضت لأحداث وحروب كثيرة عبر تاريخها الطويل عكرت صفو أمنها، وسلامها. قدَّسها المسلمون، فهي قبلتهم الأولى إليها أُسري بمحمد ﷺ، ومنها عرج إلى السماء. لقد فتحها المسلمون سلمًا في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة [٦٣٨م]، وكتب لهم وثيقة سميت بالعهدة العمرية، هذه العهدة وردت في كتب التاريخ بأكثر من صيغة، ونص، وأغلبها تحمل مضمونًا متشابهًا، ولقد اخترت إحدى هذه الصيغ:

(بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين: هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان .. أعطاهم أمانًا لأنفسهم، وأموالهم، ولكنائسهم، وصلبانهم، وسقيمها وبريئها، وسائر ملتها .. أنه لا تُسكن كنائسهم، ولا تُهدم، ولا ينقص منها ومن حيزها ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يُضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يُعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منهم فإنه آمن على

نفسه وماله حتى يبلغوا أمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه، وماله مع الروم ويخلي بِيعهُم، وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم، وعلى بِيَعهم، وصلبهم حتى يبلغوا أمنهم، فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم، وعلى ما في هذا الكتاب ذمة الله، وذمة رسوله وذمة الخلفاء، وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية. كتب وحضر سنة (خمس عشرة هجرية) شهد على ذلك: خالد ابن الوليد، وعبد الرحمن بن عوف، وعمرو بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان).

وهكذا استظلت القدس بظل العباءة الإسلامية، وانضوت تحت راية الحكم الإسلامي. انقضت قرون طويلة على هذا الحال، لكن الغرب كان يسقي بذور الحقد والكراهية، وينميها ضد المسلمين، وهذا ما نراه جليًا واضحًا في خطبة البابا (أوربان الثاني) الذي ألقى خطبة في مدينة (كليرمونت) الفرنسية [١٠٩٥ م]. لم تكن تلك الخطبة موعظة أو دعوة إلى الإصلاح بل كانت تحريضًا، وإثارة للحقد، والطمع في نفوس الأوربيين، ودعوة للسلب والنهب، والاستيلاء على أرض الآخرين، حيث طالب بوجوب استرداد بيت المقدس من المسلمين (الكفار)، ومنّى المتطوعين في هذه الحملة بحياة أفضل في الدنيا، وبأنه سيمنحهم الغفران.

لقد كان (أوربان) خطيبًا مفوهًا أثّر في نفوس ذلك الحشد الذي جلس في البرد القارس يستمع بشغف بالغ، فكان يُسمع نشيجُ، وبكاء البعض من التأثر بينما كان آخرون يصيحون بهتافات الوعيد، والإنذار. حَشْدٌ جَمعَ بين السوقة والأشراف، والأمراء الإقطاعيين يحلم بعضهم بالمغفرة، ويحلم بعضهم بالغنى، والفتح، ويحلم بعضهم الآخر بمغامرات ينسى فيها بؤسه وفقره، ومشاكله.

**فلنقرأ بعض الفقرات الهامة التي استمع إليها ذلك الحشد:**

(أيها الجند المسيحيون لقد كنتم تحاولون من غير جدوى إثارة نيران الحرب، والفتن فيما بينكم أفيقوا فقد وجدتم اليوم داعيًا حقيقيًا للحرب. لقد كنتم سبب إزعاج مواطنيكم وقتًا ما، فاذهبوا الآن وأزعجوا البرابرة اذهبوا وخلصوا البلاد المقدسة من أيدي الكفار. أيها الجند أنتم الذين كنتم سلع الشرور، والفتن؛ ألا هبوا وقدموا قواكم وسواعدكم ثمنًا لإيمانكم. إنكم إن انتصرتم على عدوكم كانت لكم ممالك الشرق ميراثًا، وإن أنتم خذلتم فستموتون حيث مات يسوع، فلا ينساكم الله من رحمته، فيُحِلكم محل أوليائه. هذا هو الوقت الذي تُظهرون فيه شجاعتكم التي طالما أظهرتموها في وقت السلم فإذا كان من المحتم أن تثأروا لأنفسكم، فاذهبوا الآن واغسلوا أيديكم بدماء أولئك الكفار. يا قوم إذا دعاكم الرب يسوع إلى مساعدته، فلا تتواروا في بيوتكم متقاعسين، ولا تفكروا في شيء؛ إلا فيما وقع فيه إخوانكم المسيحيون من الذل، والهوان والمسكنة، ولا تستمعوا إلا إلى القدس وزفراته، واذكروا جيدًا ما قاله لكم المسيح: «ليس مني من يحب أباه، وأمه أكثر من محبته إياي أما الذي يترك بيته، ووطنه، وأمه، وأباه، وزوجه، وأولاده، وممتلكاته، ومقتنياته حبًا فيَّ، ومن أجلي فسيخلد في النعيم، وسيجزيه الله الجزاء الأوفى») .

**وفي نص آخر يقول:**

«إن الله يطلب إليكم باعتباركم من أتباع المسيح أن تنشروا هذا (أي هذا الخطاب) في كل مكان لحث الناس من كل الطبقات: الفرسان، والجنود، والمشاة، الأغنياء، والفقراء لمد يد العون سريعًا لهؤلاء المسيحيين، وأن تمحو ذلك الجنس الدنيء من أرض إخوانكم، وأنا أقول ذلك لمن هو حاضر الآن ليعلنه لمن هم غائبون، وفوق هذا فإن ذلك ما يأمر به المسيح. إن مكافأة كل من يحملُ الصليب هو نيل الغفران فورًا لجميع خطاياه .. وهذا ما أمنحه لكل من يذهب، بحكم السلطان الذي خوَّلني الله إياه، وليحارب كل واحد البرابرة كما يجب بدلًا من محاربة الإخوة والأقرباء».

لقد كانت هذه الخطبة كما وصفها بعض المؤرخين؛ بأنها أخطر خطبة في تاريخ الإنسانية، وذلك لما كان لها من نتائج خطيرة. لقد هيأت لمولد حرب عالمية طويلة دعيت بالحروب الصليبية (وذلك لكون المقاتلين كانوا يخيطون صليبًا قماشيًّا على صدورهم، والذي يكتب له منهم الرجوع إلى بلاده كان يضيف صليبًا آخر على ظهره).

لقد أُعطيت هذه الحروب صبغة دينية لكنها في الواقع كانت حربًا توسعية استعمارية بالرغم من أن الدعاة إليها كانوا من رجال الكنيسة؛ وذلك لأن غيرهم لم يكن باستطاعته هذه الحرب العالمية، وهم الوحيدون أصحاب السلطة الدينية والمدنية والقادرون على تجييش الشعب.

ومع ذلك نستطيع أن نقول: إن الأسباب المباشرة لتلك الحروب تتلخص في التالي:

الخوف من خطر المد الإسلامي (السلجوقي) الذي وصل حتى (بحر إيجة).

هذا ما جعل الإمبراطور البيزنطي أليكسيس يطلب المساعدة من مسيحيي الغرب، وقد تزامن هذا مع عودة الإيمان إلى أوربا الذي لوحظ بازدياد الحجاج المسيحيين إلى بيت المقدس، وكذلك ادعاء هؤلاء الحجاج المسيحيين بمضايقة المسلمين لهم وانتهاك حرمات الأماكن المسيحية المقدسة بالإضافة إلى ذلك سوء الحياة الاجتماعية، والاقتصادية في أوربا حيث كان الوعد لأبناء الإقطاعيين بأراض غنية في الشرق، وبقوة وسلطة.

أما بالنسبة للفلاحين فكان الدافع التخلص من حياة الذل، والعبودية، والفقر.

وللإنصاف أيضًا نذكر بأنه في سنة [١٠٠٩م] قام الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله بالاعتداء على كنيسة القيامة، في القدس حيث أمر بهدمها، حين قال:

«فليصير طولها عرضًا، وسقفها أرضًا».

فهوجمت، ونهبت، وخربت هذا ما حصل سنة [١٠٠٩م] بينما كانت بداية الحملات الصليبية سنة [١٠٩٥م]، فليس من المعقول أن يكون الاعتداء على كنيسة القيامة سببًا مباشرًا، ورئيسيًا للحروب الصليبية في تلك الأيام؛ لأن هناك فترة زمنية تتعدى الثمانية عقود.

إذن هي حرب استعمارية توسعية. كما قال المؤرخ الإنكليزي (استيفن سن): «ولم تكن في الحقيقة، إلا حملات عسكرية لتأسيس إمارات لاتينية في سورية، وفلسطين، أي أنها كانت حربًا استعمارية لا تختلف في بواعثها، ولا في أهدافها عن الحملات العسكرية الغربية التي جرت في أواخر (القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين)، على مصر وسورية، والعراق، وبلاد المغرب العربي ..

لقد دامت هذه الحروب ١٩٦سنة (١٠٩٥م - ١٢٩١م)، وقتل فيها حوالي (ستة ملايين إنسان)، ولنتصور معًا هذا العدد الهائل، ولنسأل أنفسنا والعالم أجمع من أجل ماذا قتل كل هؤلاء ..؟! .سؤال لابد أن يتبادر للذهن ...

البابا (أوربان) خطب خطبته الشهيرة، وبعد ذلك انتشر الدعاة يجوبون أوربا يجيشون ويحمسون الناس، ويثيرون بهم حميتهم الدينية أولئك الناس الذين كانوا يعيشون حياة التخلف والجهل، وكانت رؤوسهم مليئة بالخرافات ومعتقدات عصور الظلام.

كان من أبرز هؤلاء الدعاة الراهب (بطرس الناسك) الذي كان يتنقل على حماره من مكان إلى آخر بهيئة مزرية وثياب قذرة، لكنه كان يعرف بفصاحة لسانه وجودة بيانه فاستجابت له جموع من الفلاحين، والرعاع، وقطاع الطرق من فرنسا، وإيطاليا، وألمانيا، بالإضافة إلى بعض الفرسان، والرهبان شاركه داعية آخر اسمه (والتر المفلس)، وخرجت هذه الجموع يحدوها الأمل بالحصول على حياة ناعمة، وخير وفير في الشرق، وفي بيت المقدس أرض اللبن، والعسل والعيش الرغد السعيد.

عرفت هذه الحملة بحملة الرعاع، وارتُكبت فيها جميع الموبقات من سلب ونهب وقتل، واعتداء على الأعراض، واغتصاب بعض الراهبات، ولنتأمل هنا مليًّا، ونسأل بصوت عال: أين هو الوازع الديني الذي يدَّعون ..؟ حتى وصلت هذه الحملة إلى أبواب (القسطنطينية)، فسارع الإمبراطور البيزنطي إلى نقلهم مباشرة عبر مضيق البوسفور إلى آسيا الصغرى؛ ليتخلص من شرورهم، وأذاهم وفسادهم، فتلقفهم (السلاجقة)، وأوقعوا بهم هزيمة ساحقة، فلم ينج منهم إلا القليل من بينهم الراهب (بطرس الناسك).

بعد هذا الفشل الذي منيت به حملة (بطرس الناسك) جاء دور الحملات الصليبية المنظمة التي قام عليها الفرسان، والأمراء والمزودة بالمؤمن والسلاح، والعتاد حيث حدد البابا (أوربان) آب سنة [١٠٩٦م] موعدًا لرحيل الحملة، على أن تجتمع الجيوش في (القسطنطينية)، فاجتمع عدد كبير قدَّره المؤرخون بمليون شخص ـ وأنا أشك في صحة هذا العدد ـ فاستطاعوا إحراز النصر الأول على الأمير السلجوقي (قلج أرسلان) في مدينة (نيقيه)، وهذا ما رفع من معنوياتهم، وثقتهم في أنفسهم .. وتابع الصليبيون بعد ذلك زحفهم فراحت المدن تسقط الواحدة تلو الأخرى حتى تمكنوا من احتلال آسيا الصغرى بالكامل.

بعد ذلك تقدموا باتجاه بلاد الشام، فأحس أهلها بالخطر، وبدل أن يتوحدوا ظلوا على عداواتهم متفرقين، وعاجزين عن المواجهة، فسقطت (الرها) بيد (بلدوين) الذي انفصل عن الجيش الصليبي، وأسس أول إمارة صليبية في الشرق، فرح بنصره ولم يعد يهتم بمساعدة جيش الحملة. بعد ذلك سقطت (أنطاكية) بيد (بوهيموند النورماندي)، بعد حصار دام تسعة أشهر (حزيران ١٠٩٨م)، وتلك كانت الإمارة الصليبية الثانية في الشرق، وفي خلال (خمسة عشر شهرًا) تمكن الصليبيون من احتلال شمالي بلاد الشام، وكثير من المدن والقرى .. وتوالى سقوط المدن الساحلية، وغيرها وصولًا إلى أسوار بيت

المقدس، علمًا؛ بأن بعض الحكام المسلمين آثروا السلامة، ودخلوا في طاعة الصليبيين بل إن بعضهم قدَّم العون والمساعدة.

**على أبواب مدينة السلام:**

الصليبيون الآن على أبواب مدينة السلام .. تُرى هل أطلقوا حمائم السلام، لترفرف في سماء المدينة عند وصولهم ..؟ وهل استطاعت تلك الحمائم أن تحط على الأرض بين قبة الصخرة، والمسجد الأقصى لتلتقط حبات القمح بمنقارها الناعم وهي تُسبح ربها وتَسبح في بحر من الأمن والأمان...؟ هل حُملت أغصان الزيتون لتزيين أسوار المدينة ..؟ وهل رُشقت تلك الأسوار بالورود ..؟ هل دخلها الصليبيون كما دخلها قبلهم الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ..؟ هل كتبوا لأهلها عهدة كالعهدة العمرية ...؟ تعالوا، نشاهد بأم العين الأحداث. كما حصلت على ذلك المسرح المقدس، وكما صورها مؤرخوهم ومؤرخونا.

أحسّ (افتخار الدولة) حاكم بيت المقدس، من قبل الدولة العبيدية (الفاطمية) بالخطر الشديد لدى اقتراب الصليبيين من المدينة المقدسة، بعدما سمع كثيرًا عن بربرية، وجرائم أولئك الغزاة المتوحشين الذين أكلوا في طريقهم لحوم البشر، وعاثوا في الأرض فسادًا سلبًا، ونهبًا قتلًا، وتدميرًا، وتخريبًا؛ لذلك عمد إلى اتخاذ التدابير اللازمة للدفاع عن المدينة فاستنفر الحامية الموجودة لديه ثم قام بتسميم آبار المياه، وقطع مواردها، وأخرج جميع السكان المسيحيين من المدينة لشعوره بخطورة وجودهم أثناء الهجوم الصليبي، خيفة تعاطفهم معه، وقوّى استحكامات المدينة.

أربعون ألفًا من المقاتلين الصليبيين يحاصرون القدس، وكلهم شوق وحماسة لإسقاط المدينة ودخولها. خمسة أيام من الاستطلاع، والتجهيز، والاستعداد .. مرت قبل أن ينفذ الجيش هجومًا كبيرًا في يوم (الاثنين ١٢حزيران ١٠٩٩م)، انهارت على

إثره بعض التحصينات الخارجية لأسوار المدينة الشمالية، صد رجال الحامية هذا الهجوم ببسالة وشجاعة جعلت المعتدي ينكفئ ويتراجع بعد ساعات من القتال، وقد خبت شعلة الحماس لديه.

لقد شعر الجند بالإحباط؛ لأن موقفهم كان بالفعل سيئًا جدًّا بسبب العطش، وقلة المؤن، وشمس حزيران القاسية التي تلهب رؤوسهم، ومنعة أسوار المدينة.

لكن شاءت الأقدار أن تصل سفن حربية من جنوة إلى يافا، وتستولي عليها.ثم ترسل إلى هذا الجيش المنهك الإمدادات، والمؤن، والأسلحة، والمواد اللازمة لصناعة آلات، وأبراج الحصار. هذا ما أعاد الحياة والأمل لهذا الجيش، فقويت عزائمه مما جعله يطمع في إنجاز النصر .. نجح الصليبيون في صناعة برجين خشبيين لا رتقاء الأسوار، وكذلك آلات لدك الأسوار .. فاختاروا أضعف الأماكن في الأسوار، وهو الجزء الشرقي المحصور بين (جبل صهيون) إلى السور الشمالي إذ كان منخفضًا، ويسهل ارتقاؤه.

حرك الصليبيون أبراجهم إلى السور الشمالي للمدينة، وقد سرَّعوا بهذا الهجوم آملين باحتلال المدينة سريعًا، وذلك لوصول أخبار إليهم بأن الوزير الفاطمي (الأفضل الجمالي) في طريقه من مصر على رأس جيش ضخم لإنقاذ بيت المقدس.

وفي يوم (الأربعاء١٣تموز١٠٩٩م)، شن الصليبيون هجومًا كبيرًا لكن (افتخار الدولة)، بصموده وحاميته، استطاع أن يحرق برجًا كان قد اقترب من السور الواقع عند (باب صهيون)، ويصد ذلك الهجوم؛ لذلك انسحب الصليبيون بعد يوم قتال شديد. هذا الفشل لم يحط من عزائمهم هذه المرة، بل زادهم إصرارًا على اقتحام المدينة، فشنوا هجومًا ضاريًا فجر يوم (الجمعة ١٥تموز ١٠٩٩م)، واستمر القتال متكافئًا حتى استطاع البرج المتبقي الالتصاق بالسور، وإنزال الجسر المتحرك الذي يصل بين قمة البرج والسور حيث نجح عدد كبير من المهاجمين في الوصول إلى السور، ومن ثم النزول إلى باب السور

وفتحه، فتدفق الغزاة إلى داخل المدينة، فلاذت الحامية بالفرار نحو المسجد الأقصى، وقبة الصخرة لتحتمي بهما .. وهكذا سقط بيت المقدس ... نعم لقد سقط بيت المقدس ...

يقال: إن حزنًا كبيرًا ساد في الأمة الإسلامية المشتتة إلى إمارات، وممالك متفرقة .. لكنهم اكتفوا بهذا الحزن، وخاصة بعدما هُزم الجيش القادم من مصر بقيادة الوزير الفاطمي (الأفضل الجمالي).

لكن الأمة الإسلامية يومها - في تصوري وعلى الأغلب - لم تقتصر على الحزن فقط، بل شجبت واستنكرت، وأدانت هذا الاعتداء الآثم، كما نستنكر ونشجب، وندين اليوم ما يفعله الصهاينة في ذلك البلد المقدس نفسه. إذن سلاحنا الذي لا نتخلى عنه أبدًا إلا فيما ندر هو الحزن ثم يليه الشجب، والاستنكار والإدانة..!.

***الصليبيون في بيت المقدس :***

دخل الصليبيون المدينة المقدسة ... دخلوها، وهم يحملون في نفوسهم أشياء وأشياء قد لا يستطيع المرء التعبير عنها، ووصفها الوصف الدقيق .. قد تكون كلمات الحقد، والكراهية، والإجرام، والهمجية، والبربرية كلمات لا تفي بالغرض، ومعانيها لا تكفي لوصف ما فعله أولئك الغزاة المتوحشون، بشعب أعزل لا يملك وسيلة للدفاع عن نفسه سوى الفرار، وذلك بعدما فرت الحامية، والتجأت إلى المسجدين تحتمي بقدسيتهما.

لم يكد الصليبيون المتعطشون لإراقة الدماء يدخلون المدينة حتى أعملوا السيف والرمح، وآلات القتل بكل سكان القدس من غير تفريق بين رجل وامرأة، ولا بين شيخ، وطفل صغير الكل سواء أمام سنان الرمح، وحد السيف الجميع سواء أمام الحقد البربري المتجذر داخل نفوسٍ لا تعرف معنى الإنسانية هذا ما حصل طيلة اليوم الأول لدخولهم.ثم تابعوا أعمالهم الإجرامية في صباح اليوم الثاني، فقتلوا كل المحتمين بحمى المسجد الأقصى، بالرغم من أن أحد قادة الغزاة كان قد أمنهم على حياتهم لكنهم لم

يراعوا هذا العهد .. وذبحوهم عن آخرهم، وكان عددهم يقدَّر بنحو سبعين ألفًا من بينهم جماعة كبيرة من أئمة المسلمين، وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن تركوا أوطانهم وأقاموا في ذلك المكان المقدس.

إذن أُبيد سكان بيت المقدس بالكامل إبادة جماعية لم تبق، ولم تذر.!

لقد أرخ لهذه الوحشية العديد من مؤرخيهم، فذكر مؤرخ صليبي ممن شهد هذه المذابح وهو (ريموند أوف أجيل): أنه عندما توجه لزيارة ساحة المعبد غداة تلك المذبحة لم يستطع أن يشق طريقه وسط أشلاء القتلى؛ إلا بصعوبة بالغة وأن دماء القتلى بلغت ركبتيه.

كذلك يصف المؤرخ الصليبي (فوشيه الشارتري) ما شاهده داخل المدينة المقدسة في ذلك اليوم بقوله: (وهرب بعض هؤلاء العرب إلى برج داوود، وأغلق آخرون على أنفسهم معبد الرب، ومعبد سليمان، وتم شن هجوم وحشي على المسلمين في فناء هذين المعبدين، ولم يكن هناك مكان يمكن أن ينجيهم من سيوف رجالنا، ولو أنك كنت موجودًا هناك لغاصت قدماك حتى العقبين في دماء المذبوحين ترى ماذا أقول؟

لم نترك منهم أحدًا على قيد الحياة، ولم ينج حتى النساء، والأطفال كم سيكون مدهشًا لو أنك رأيت فرساننا، ومشاتنا بعد أن اكتشفوا خداع المسلمين فشقوا بطون الذين ذبحوهم، لكي يستخرجوا من المعدة، والأمعاء العملات الذهبية التي كان المسلمون قد ابتلعوها، وهم أحياء.!! ولنفس السبب قام رجالنا بعد أيام قلائل بجمع كومة من الجثث، وأحرقوها حتى صارت رمادًا حتى يمكنهم أن يجدوا بسهولة الذهب الذي ذكرنا خبره عندما جرى رجالنا، وسيوفهم مشرعة عبر أرجاء المدينة ولم يبقوا على أحد حتى أولئك الذين يرجون الرحمة. سقط الجميع كما تسقط التفاحات العفنة جميعًا من الأغصان المهزوزة، وبعد هذه المذبحة الكبيرة دخلوا بيوت السكان، واستولوا على

كل ما وجدوه فيها، وتم هذا بطريقة جعلت كل من كان يدخل أولًا سواء كان فقيرًا أو غنيًّا لا يجد من ينازعه من الفرنج الآخرين، وكان له أن يحتل المنزل أو القصر، ويمتلكه بكل ما فيه كما لو كان ملكية خاصة له، وهكذا اتفقوا جميعًا على هذا النمط من الملكية، وبهذه الطريقة صار كثيرون من الفقراء أثرياء).

وقال المؤرخ الصليبي (ريمون الأجوي) يصف ما شاهد: (بدأ رجالنا يدخلون إلى القدس بجسارة، وإقدام، وقد أراقوا من الدماء في ذلك اليوم كمية لا يمكن تخيلها)، وقال: (ما إنِ استولى رجالُنا على السور والأبراج ... حتى أطاحوا برؤوس أعدائهم، بينما رشقهم البعض الآخر بالسهام، بحيثُ سقطوا من الأبراج، على حين عذبهم بعضهم فترة طويلة؛ بأن قذفوهم في النار أحياء، وكانت أكوام الرؤوس، والأيدي، والأرجل تسترعي النظر في شوارع المدينة، وكان المرءُ يَشُقّ طريقه بصعوبة بين جثث الرجال، والخيول، ولكن هذه كانت أمورًا صغيرة إذا قورنت بما جرى في معبد سليمان .. ترى ما الذي حدث هناك؟! إذا ذكرت الحقيقة فإنَّها ستتعدَّى قدرتكم على التصديق؛ ولذا يكفي أن أقول: إنه في معبد سليمان كان الرجالُ يخوضون في الدماء حتى ركبهم وحزام ركابهم، والواقع أنه كان حكمًا عادلًا، ومحترمًا منَ الرَّبّ أن يمتلئَ هذا المكان بدماء الكفار؛ لأن هذا المكان طالما عانى من دَنَسِهم، وامتلأت المدينة بالجُثث، والدِّماء، والآن تم الاستيلاء على المدينة، وهي جديرة بكل أعمالنا السابقة، والمصاعب التي واجهناها؛ لترى إخلاص الحُجَّاج في الضريح المقدس).

وذكر صاحب كتاب (أعمال الفرنجة): أن جثث قتلى المسلمين، وُضعت في أكوامٍ حتى حاذتِ البُيُوتَ ارتفاعًا.

وذكر المؤرخ الصليبي (ميشو): أن المسلمين كانوا يُذْبَحُون ذبح النعام في الشوارع والمنازل، وأنهم لم يجدوا مكانًا آمنًا يلوذون به.

ويسمي رئيس الأساقفة (وِلْيَم الصوري): الاستيلاءَ على المدينة المقدسة باسم (نهاية الحج)، ويقول: (لم تكن فيها وحدها مناظر الجثث بلا رؤوس والأطراف المتناثرة في جميع الاتجاهات، والتي أثارت الانزعاج في نفوس كل من نظر إليها، بل كان مما يثير الرعب الفظيع النظر إلى المنتصرين أنفسهم، وهم غارقون في الدماء من قمة الرأس إلى أخمص القدم).

ويتابع وصف ما جرى، بقوله: «لقد أعلن كل مهاجم أن المنزل الذي دخله قد أصبح ملكًا له بكل ما يحويه؛ ذلك لأنه قبل الاستيلاء على المدينة كان الحجاج قد اتفقوا على أنه بعد الاستيلاء على المدينة بالقوة يصبح من حق أي رجل أن يمتلك ما يستطيع الفوز به مدى الحياة من غير أن يتعرض حقه في هذا الامتلاك لأي نوع من المعارضة، ونتيجة لهذا وصل الحجاج إلى المدينة بكل حذر وقتلوا مواطنيها بكل جرأة، وتوغلوا في الأماكن المهجورة، والأماكن البعيدة، وفتحوا بالقوة المساكن الخاصة للأعداء، وعلى مدخل كل منزل كان يعلق المنتصر المستولي على هذا المنزل درعه وأسلحته إنذارًا لجميع المقتربين منه؛ ألا يقفوا أمام هذا المنزل فقد سبقت حيازته».

ونقل المؤرخ الغربي (ديورانت) عمن حضروا تلك المذابح وشاركوا فيها قولهم: «إنَّ النساء كن يُقتلن طعنًا بالسيوف، والحراب، والأطفال الرضع يختطفون بأرجلهم من أثداء أمهاتهم، ويُقذف بهم من فوق الأسوار، أو تُهشَّم رؤوسهم بدقها بالعمد».

وقال المؤرخ الصليبي المسمَّى (الفارس المجهول): «وطاردهم رجالنا يقتلونهم، ويمزقونهم حتى معبد سليمان، حيثُ جَرَتْ هناك مذبحةٌ بلغ من عُنْفِهَا أن رجالنا كانوا يخوضون في دماء أعدائهم حتى أعقابهم ... لدرجة أن المعبدَ كلَّه كان يفيض بدمائهم .. وفي اليوم التالي توجهوا بحذر إلى سطح المعبد، وهاجموا المسلمينَ نساءً، ورجالًا، وقطعوا رؤوسهم بسيوفهم، وقذف بعض المسلمين بأنفسهم من أعلى المعبد. ثم تشاور رجالنا، وأمروا بأن يتصدق الجميع، وأن يصلوا للرب؛ لكي يختارَ بنفسه من يريده أن يحكم

المدينة، كما أمروا بأن تُرمى جميعُ جثث المسلمين خارج المدينة بسبب الرائحة المرعبة؛ لأن المدينة كلها تقريبًا كانت ملأى بالجثث».

ثم ذكر أن الجثث كُوِّمَتْ في أكوام كبيرة بحجم البيوت، وقال: «لم ير أحد من قبل أو يسمع عن قتلٍ بمثل هذا العدد من الوثنيينَ؛ لأنهم أُحرقوا في أكوام مثل الأهرامات، ولا يعرف أحد غير الرب كم كان عددهم».

**والجدير بالذكر:** إن القتل في هذا اليوم لم يكن خاصًا بالمسلمين فقط، بل عانى منه اليهود أيضًا، فلقد جمع الصليبيون اليهود في الكنيس. ثم أحرقوه عليهم.

وقد اختصر الصليبيّون، وصف هذه المذابح العظيمة في الرسالة التي أرسلوها إلى البابا يخبرونه بما فعلوا قائلين: «إذا ما أردت أن تعلمَ ما جرى لأعدائنا الذين وجدناهم بالمدينة، فثِقْ أنّه في إيوان سليمان أو معبده كانت خيولنا تخوض في بحر من دماء الشرقيين المتدفّقة إلى ركبتيها».

ولقد كتب (ابن الأثير) يصف هذا الحدث، بقوله: «لبث الإفرنج أسبوعًا يقتلون المسلمين .. وقتلوا في المسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفًا، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين، وعلمائهم، وعبادهم وزهادهم ، ممن فارق الأوطان، وجاور ذلك الموضع الشريف».

لقد سكن الصليبيون بيوت المسلمين، وحولوا مسجد قبة الصخرة إلى كنيسة، وجعلوا المسجد الأقصى ثكنة لفرسانهم، وأسفله اصطبلًا لخيولهم . أما سكان المدينة من مسيحيي الشرق فقد أبقاهم الصليبيون لكن بعد أن جردوهم من السيادة الدينية ، بإلغاء البطريركية الأرثوذكسية وإقامة أخرى لاتينية.

هذه حال مدينة السلام القتيلة ... وهذا ما حدث فيها لقد نفرت حمائم السلام ولم تجد أرضًا تقف عليها لتلتقط الحَب لقد كانت أرض المدينة كلها مغطاة بالدماء ... فهل

اضطرت الحمائم إلى شرب الدماء بدل الماء ..؟ وهل تلوثت مناقيرها الناعمة، وتلونت بلون الدماء ..؟ أم أنها اشمأزت من تلك المناظر ونفرت من ذاك الشراب ..؟ فطارت بعيدًا مذعورة تنشد السلام، وتفتش عنه في مدينة أخرى غير مدينة السلام تلك.

لقد هجرت الحمائم المدينة من جرَّاء خطبة زلزلت أوربا وأخرجت أسوأ ما فيها خطبة أدت إلى قتل حوالي ستة ملايين إنسان، خطبة سوداء في عصر من عصور الظلام عبأت الحقد والكراهية، وأثارت مكامن الجشع، والطمع في النفوس خطبة استنفرت الوحوش الكامنة في نفوس الأوربيين مما جعلتهم يقطعون جثث الموتى من المسلمين، ويطبخونها ويأكلونها، وجعلتهم كذلك يستمتعون بشي الأطفال الصغار بأسياخ على نار هادئة، ويتلذذون بأكلها، بلا أدنى تقزز أو كراهة مع أن الله قال في قرآنه الكريم: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ (المائدة:٣١). إن هذه الأعمال ليست من الإنسانية في شيء، وكأن من قاموا بها لا ينتمون إلى بني البشر، إنها وصمة عار في جبين الغرب من الصعب أن تمحى، ومن الصعب أن تنسى حرب غريبة فريدة، حرب لم يكن فيها جرحى ولا مشوهي حرب؛ لأن جميع المهاجَمين من المسلمين قد قتلوا.. بل أبيدوا إبادة تامة.

لقد هُتكت حرمة الإنسانية، وداستها سنابك الخيل وأقدام الجنود ... تعالوا لنتصور معًا أي همجية تلك التي لم تفرق بين مقاتل، وأعزل، ولنتصور همجية لم تستثن شيخًا ولا طفلًا، ولا امرأة ... نتساءل باستغراب أي قلوب تلك ...؟!! وماذا كانت تحمل حتى كان الجميعُ لديها مباحَ الدمِ بلا استثناء، ولِمَ...؟ ولماذا كانت هذه الإبادة الجماعية ..؟ الواقع لقد اجتمعت عدة عوامل من أهمها التعصب الديني الأعمى الذي جعلهم يبيدون كل ما هو غير مسيحي من مسلمين ويهود حتى إنهم نزعوا السيادة الدينية من المسيحيين من غير طائفتهم، وأعلوا شأن كنيستهم اللاتينية وحدها.

يتساءل المرء: كيف تتواءم أعمالهم الوحشية هذه مع مبادئ الدين المسيحي الذي يدعو إلى المحبة والتسامح ..؟ ! وهل أعمالهم هذه تمتُّ إلى الدين المسيحي في شيء ..؟ أستغرب كيف استطاعوا بعد كل ما هدروه من دماء، وكل ما أزهقوه من أرواح الوقوف للصلاة أمام القبر المقدس بنفوس مطمئنة خاشعة..؟!!! فهل خشعوا فعلًا..؟ وهل كانوا راضين عن أنفسهم ...؟ وهل كانوا يشعرون أنهم أرضوا الرب فعلًا بهذا الإجرام ..؟ وهل كانوا يتصورون أن هذا هو ما أمرهم به ...؟ أسئلة محيرة ..!! وبالإضافة إلى التعصب الديني هناك دافع آخر لتلك الإبادة الجماعية التي تمت، وهو دافع رئيسي وأساسي لهذه المجزرة، وهو حب المال وحب التملك لقد كانوا يقتلون ثم يقومون ببقر البطون، والتفتيش في المعدة والأمعاء عن الذهب الذي من الممكن أن يكون المسلمون قد ابتلعوه، وقد أحرقوا الجثث أيضًا للتفتيش عن ذلك الذهب بالإضافة إلى احتلال البيوت ووضع اليد على الممتلكات، فكلما قتل أحدهم أكثر استطاع أن يحوز على ممتلكات أكثر .. لقد أصبح فقراؤهم أغنياء، بعدما هُدرت تلك الدماء في ليلة وضحاها .. وهذا ما كانوا ينشدونه ويسعون إليه بالفعل .. المال .. التملك .. الثراء .. لقد نحروا الإنسان داخلهم، واستعاضوا عنه بوحش كريه لا يبقي، ولا يذر لقد قتلوا السلام في مدينة السلام..

**اقول اخيرًا:** ليت بني البشر يؤوبون إلى إنسانيتهم، ويعيشونها بكل ذرة من كيانهم، وليتهم ينثرون بذور الحُب في كل القلوب، فمن يزرع الحُب لابد حاصده، وليتهم يتخلون عن التعصب بكل أشكاله، وعن الطمع بكل ألوانه، وليتهم يتوقفون عن التصرف وفق الغرائز والأهواء، وليتهم يُعْمِلون العقول الراجحة في الأمور ... كي يستطيعوا إثبات انتمائهم الفعلي للعائلة الإنسانية...

**بعض المصادر:**

- عزيز سوريال العطية، الحروب الصليبية وتأثيرها على الشرق والغرب.
- قاسم عبده قاسم، أعمال الفرنجة حجاج بيت المقدس، وكتاب الحملة الصليبية الأولى نصوص ووثائق.

- ميشو، تاريخ الصليبية.
- وليم الصوري، تاريخ الأعمال التي تمت فيها وراء البحار.
- ريمون الأجوي لري، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس.
- المؤرخ الغربي ديورانت، قصة الحضارة.
- ابن الأثير، الكامل في التاريخ.
- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق.



## ٨ـ الإعصار القادم من الشرق التتار

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (الأعراف:٣٤).
تتباهى الأمم بأمجادها، وتتغنى بما قامت به في الأيام الخوالي من فتوحات أو انتصارات أوصدٍّ عدو غاشم أراد احتلال البلاد، واستعباد العباد.

تتباهى بما كان لها من دور في نشر فكر، أو علم يحمل الخير للبشرية أو دعوة تنير سبل الحياة .. تتباهى بما كان لها من عز وسلطان على الأرض، وعلى العباد، وكيف كانت تسوسهم بعدل وحكمة.

فهل كان لأمة التتار مزية تفتخر بها وتتباهى ..؟ وهل كان لديها رسالة تريد نشرها ..؟ أم هل ساهمت بما قامت به في إضافة لبنة جديدة إلى بناء الصرح الحضاري التراكمي للبشرية ..؟ تعالوا معي لنتعرف على التتار، وعلى ما قاموا به من أفعال، ونقيّم معًا ما قدموه للبشرية.

### من هم التتار؛

ظهرت دولة التتار في سنة (٦٠٣هـ ـ ١٢٠٦م) وكان ظهورها في منغوليا شمال الصين في صحراء جوبي، ومن قبائلها قبيلة المغول، وقبائل الترك، والسلاجقة وغيرها، وكان أول زعمائها وموحد قبائلها المتناحرة تيموجين الذي وحدها ببراعة سياسية، وقبضة عسكرية حديدية. يومها خلع على نفسه لقب جنكيز خان (١١٦٧ـ١٢٢٧م) وهذا اللقب يعني قاهر العالم أو مِلك ملوك العالم، أو القوي، وذلك بحسب الترجمات المختلفة للغة المنغولية. كان رجلًا قويًا جبارًا سفاكًا للدماء، وقائدًا عسكريًا شديد البأس، اتخذ قراقورم عاصمة لهذه الدولة الجديدة. ثم بكين فيما بعد.



كان التتار يعتمدون في معيشتهم على الرعي، وكانوا بداة متنقلين ثم تحولوا إلى الزراعة، وكانت الصناعة عندهم بسيطة تلبي فقط حاجات الرعي والزراعة.

***الصفات الجسدية للتتار***

القامة متوسطة إلى قصيرة (١٦٠-١٧٠سم)، والجذع أطول من الأطراف، والعجز كبير، الأكتاف والرؤوس عريضة، والوجوه مسطحة جباهها عريضة، وأنوفهم صغيرة وعندهم بروز ونتوء في الخدود الفك الأسفل واسع عريض، والعيون سوداء موزية الشكل تقبع في محاجر كبيرة.تعلوها أجفان شحمية ثقيلة شفاههم رقيقة، ووجوههم وأجسادهم تكاد تخلو من الشعر ألوانهم بيضاء مصفرة، وتميل إلى السمرة في المناطق الصحراوية الجافة.

هذا من الناحية الجسدية أما من الناحية النفسية فكانوا قساة غلاظ محبين للقتل وإراقة الدماء ليس في قلوبهم رحمة، ولا شفقة بل كأنهم بلا قلوب ألبته، ولقد عرفوا بنقضهم للعهود والمواثيق، فليس عندهم أسهل من ذلك وقد تميزت حروبهم بالانتشار السريع وأعداد هائلة من البشر كما امتازوا بتحمل الظروف القاسية، والقيادة العسكرية البارعة، وحروبهم حروب تخريب وتدمير غير طبيعية فكانوا يدمرون المدن التي يدخلونها، ويقتلون جميع ساكنيها لا يفرقون بين رجل وامرأة، ولا بين رضيع وشاب ولا بين صغير وكبير.

أما دينهم: فلقد عبدوا ظواهر الطبيعة (الريح والرعد والصواعق والخنزير والذئب كذلك عبدوا الكواكب وخاصة الشمس)، وعندما جاء جنكيز خان جمع خليط عجيب من بعض الشرائع الإسلامية، والمسيحية، والبوذية، وأضاف من عنده شرائع أخرى وأخرج لهم في النهاية كتابًا جعله كدستور لهم، وسمي هذا الكتاب بـ (الياسة أو الياسق أو إيخ زاساغ).

**وضع الأمة الإسلامية قبل الاجتياح المغولي:**

قبل أن نتكلم عن الانتشار المغولي الذي اكتسح أكثر من[٢٢٪] من أرض اليابسة في الكرة الأرضية، وكوّن ثاني أكبر إمبراطورية في العالم بعد الإمبراطورية البريطانية لابد لنا من الاطلاع على وضع الأمة الإسلامية عامة، ووضع الخلافة العباسية في بغداد خاصة من حيث القوة والضعف، ونقيّم ما بذلت من استعدادات لصد المغول عن عاصمة الخلافة.

لقد كان جسم الأمة الإسلامية كبيرًا جدًّا، ويهيمن على مساحة ضخمة وشاسعة من العالم؛ إذ كان يبدأ من غرب الصين ويمتد عبر آسيا، وإفريقيا ليصل إلى غرب أوربا حيث بلاد الأندلس.

لكن للأسف هذا الجسم الكبير كان كما يقول المثل: كأجسام البغال وأحلام العصافير، لقد كانت الأمة تعيش حالة مزرية من الضعف، والانقسام، والتفتت، وذلك بعد أن أصبحت الخلافة العباسية خلافة شكلية لا حول لها، ولا قوة، ويشي وضعها عن ضعفٍ ينبي؛ بأن أجلها بات قريبًا.

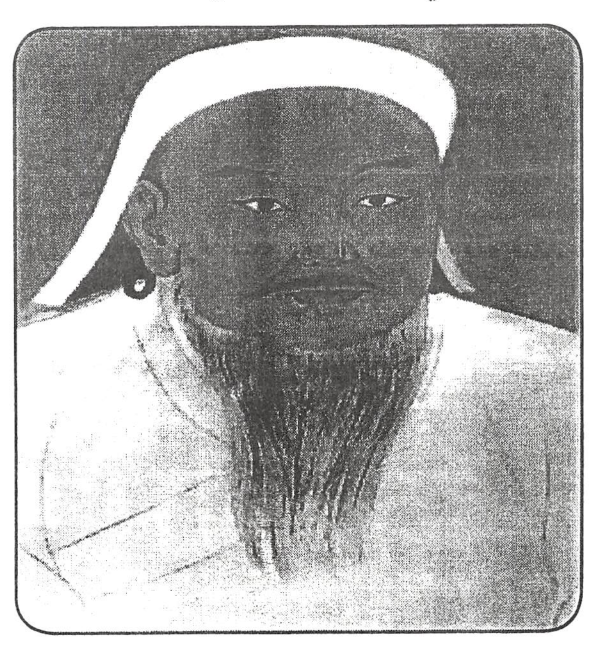
لقد كانت مقسمة إلى إمارات، وممالك، ودويلات متفرقة، فلقد كانت مصر والشام، والحجاز، واليمن في أيدي الأيوبيين أحفاد صلاح الدين الأيوبي، وشتان ما بين الجد وأحفاده، وكانت بلاد المغرب والأندلس بيد الموحدين الذين شكلوا يومًا دولة واسعة قوية. أما في شرق الخلافة العباسية فقد كانت الدولة الخوارزمية التي تضم معظم البلاد الإسلامية في قارة آسيا، وتمتد حدودها من غرب الصين شرقًا إلى أجزاء كبيرة من إيران غربًا، وكانت هذه الدولة على خلاف كبير مع الخلافة العباسية، وبينهما دسائس ومؤامرات أما الأجزاء الغربية من فارس، والملاصقة للخلافة العباسية فكانت تحت

سيطرة طائفة الإسماعيلية (الحشاشين) الذين كانوا يحاولون نشر مذهبهم، فقاموا بتنفيذ الكثير من الاغتيالات لشخصيات هامة في الأمة الإسلامية ممن يعارضون مبادئهم.

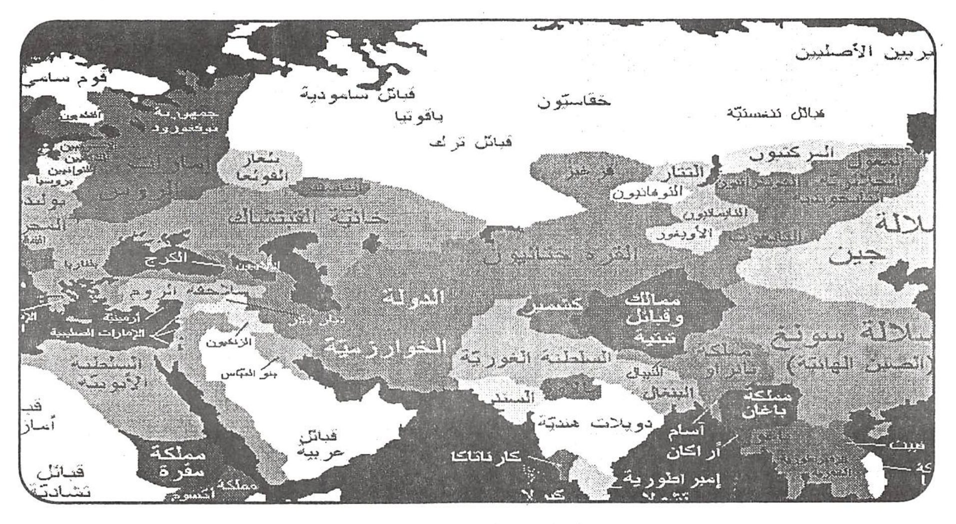
أما منطقة الأناضول فكانت تحت حكم السلاجقة (الأتراك ) الذين كان لهم تاريخ عظيم أيام القائد السلجوقي المسلم ألب أرسلان، لكن للأسف أيضًا، فإن الأحفاد الذين كانوا يحكمون هذه المنطقة الحساسة، والملاصقة للإمبراطورية البيزنطية كانوا على درجة مزرية من الضعف أدت إلى مواقف مؤسفة من الذل والهوان.

**بداية الإعصار التتري:**

الفكر التوسعي لجنكيز خان جعله يفكر باجتياح البلاد الإسلامية بدءًا من الدولة الخوارزمية المجاورة له التي كانت تضم عدة أقاليم مثل: أفغانستان، وأوزباكستان، والتركمانستان، وكازاخستان، وطاجاكستان وباكستان وأجزاء من إيران، وكانت عاصمة هذه الدولة الواسعة هي مدينة أورجندة (في تركمانستان حاليًا).



جنكيز خان

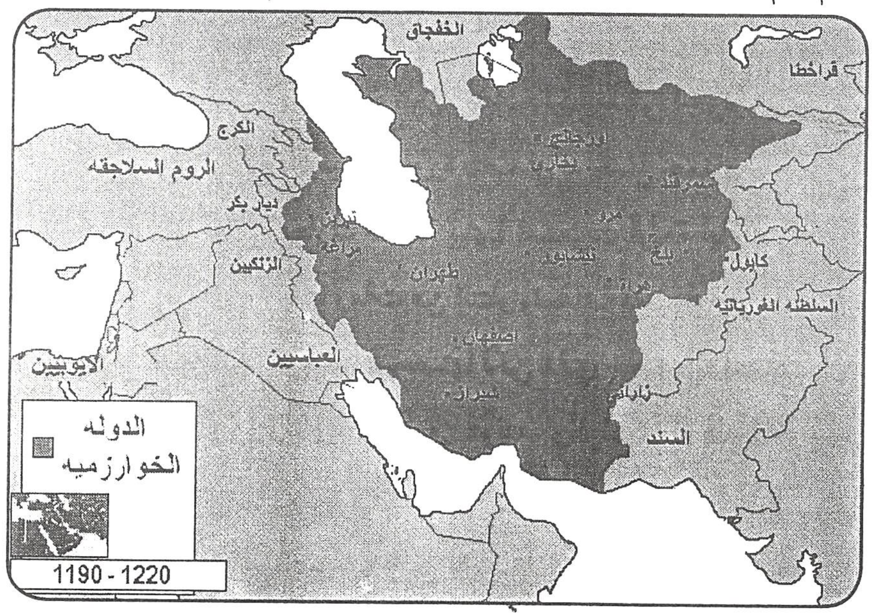



العالم قبل الاجتياح المغولي

نقض (جنكيز خان) كافة العهود، والمواثيق المتفق عليها لحسن الجوار، واختلق الأسباب ليدخل بجيشه الدولة الخوارزمية المجاورة فتصدى له جيش محمد بن خوارزم (٦١٦هـ ـ ١٢١٩م) حيث دارت معارك طاحنة بينهما استمرت أربعة أيام متواصلة استشهد فيها من المسلمين عشرون ألفًا، ومات من التتار أضعاف ذلك تحاجز الجيشان ورجع محمد بن خوارزم شاه باتجاه عاصمته ليحصنها لكن الذي حصل أنه اهتم بتأمين نفسه، وأسرته، وأقربائه، وكنوزه وتهاون في تأمين دولته، وأفراد شعبه للحفاظ على أرواحهم وممتلكاتهم.

مما جعل (جنكيز خان) يجهز جيشه ويدخل إقليم كازاخستان الكبير ويسقط مدنه الواحدة تلو الأخرى ... يحاصر بخارى، ويرغم الأهالي على مساعدته في ردم الخنادق حول قلعتها ... تسقط بخارى وقلعتها بين يديه الآثمتين، فيكتب ابن الأثير واصفًا هذا الحدث: «فقتلوا من أهلها خلقًا لا يعلمهم إلا الله، وأسروا الذرية والنساء، وفعلوا معهن الفواحش بحضرة أهليهن».

وفي سنة( ٦١٧هـ ـ١٢٢٠م) ارتكب التتار أبشع الجرائم التي لا تنتسب إلى الإنسانية بصلة، وذلك بعد أن اكتسحوا عدة مدن إسلامية، وفعلوا بها كما فعلوا في بخارى وأكثر استقر السفاح جنكيز خان في سمرقند بعدما أعجبته، وأرسل كتيبة مؤلفة من عشرين ألف جندي تطارد محمد بن خوارزم شاه لتقضي عليه، فأخذ يفر من كل مكان تصل إليه تلك الكتيبة حتى انتهى به المطاف إلى جزيرة في بحر قزوين فعاش بها في حرمان وفقر مدقع، وهو الملك الذي عاش في رفاهية ودعة، ومَلَك بلادًا شاسعة وأموالًا لا تعد، ولا تحصى رضي بهذا العيش فرارًا من الموت لكن الموت عاجله بعد بضعة أيام فلم يجدوا ما يكفنونه به، فكفنوه بفراش كان ينام عليه!!.




أما الكتيبة التترية، فكانت تنطلق بين ملايين المسلمين تعيث في البلاد فسادًا وخرابًا تقتل، وتأسر دون مقاومة تذكر من جموع المسلمين الغفيرة، وهذا ما يدل على مدى الضعف الذي كانت عليه الأمة .. وحالف الحظ تلك الكتيبة فعثرت على والدة محمد بن خوارزم شاه ونسائه، ومعهن الأموال الغزيرة، والنفائس العظيمة، فسبوهن وأرسلوا ما غنموا إلى جنكيز خان في سمرقند.

لقد كان هَمُّ (جنكيز خان) اجتياح أكبر إقليمين في الدولة الخوارزمية، وهما خراسان، وخوارزم، ولأجل احتلالها بدأ التتار بغزو بلخ، فطلب أهلها الأمان فأعطاهم جنكيز خان الأمان مقابل أن يساعدوه في غزو مدينة مرو فاستجاب أهل بلخ المهزومون نفسيًا، وعاونوه فيما أراد.

قتل التتار في مرو سبعمائة ألف إنسان هم كل سكان المدينة من الرجال، والنساء والأطفال، وسلبوا كل الأموال حتى أنهم نبشوا قبر السلطان سنجر بحثًا عن أموال أوحُلِيٍّ قد تكون مدفونة معه.

لنتلمس هنا الإنسانية، ونفتش عنها بالسراج والفتيل، وننقب جيدًا بين أعمال أولئك الهمج، وما قاموا به من أعمال قتل، وإبادة جماعية، فهل سنجد شيئًا منها..؟ لا بد أننا سنكون كمن يفتش عن إبرة في بحر.

بعد ذلك توجه التتار إلى نيسابور (التي تقع حاليًا في الشمال الشرقي لإيران) ثم هراة، فخوارزم، وكانت المنطقة الجنوبية من خوارزم فقط ما تزال تحت سيطرة جلال الدين بن محمد بن خوارزم الذي راح يعد العدة لقتال التتار حيث انضم إلى جيشه أحد ملوك الأتراك المسلمين، واسمه سيف الدين بغراق، وكان شجاعًا مقدامًا، ومعه ثلاثون ألف مقاتل.

كما انضم إليه ستون ألف مقاتل من الجنود الخوارزمية الذين فروا من المدن المختلفة في وسط وشمال دولة خوارزم بعد سقوطها كما انضم إليه أيضًا (ملك خان) أمير مدينة هراة بفرقة من جيشه بعد أن أسقط جنكيز خان مدينته، وهكذا بلغ جيش جلال الدين عددًا كبيرًا. كَمَنَ هذا الجيش للتتار بجوار مدينة غزنة حيث دارت بعد ذلك معركة طاحنة بين الجيشين دامت ثلاثة أيام استطاع بعدها جلال الدين من انتزاع النصر.

وهكذا انهزم التتار للمرة الأولى أمام المسلمين، وفر جيشهم موليًا الأدبار إلى ملكهم جنكيزخان الذي كان متمركزًا في (الطالقان) شمال شرق أفغانستان الذي شعر بقلق شديد، وخاصة عندما دعاه جلال الدين للنزال مرة ثانية، ولكنه مع ذلك جهز جيشًا أكبر من الجيش الأول، وأرسله مع أحد أبنائه، والتقى الجيشان في مدينة كابول في أفغانستان حيث دارت معركة شرسة أشد ضراوة من معركة غزنة، وكتب الله النصر للمسلمين أيضًا، وحرروا عشرات الآلاف من الأسرى من يد التتار، وغنموا غنائم كثيرة.

لكن هذه الغنائم كانت نقمة، ولم تكن نعمة إذ كانت هي السبب في ضعف الجيوش المتحدة، حيث انسحب سيف الدين بغراق بجيشه إثر خلاف مع (ملك خان) على اقتسام الغنائم، ولم تُجدِ الوساطات في بقائه، في تلك الظروف جاء جنكيزخان بنفسه على رأس جيش كبير فدب الرعب في جيش جلال الدين الذي شعر بضعف جيشه بعد انسحاب سيف الدين بغراق لذا قرر الابتعاد بجيشه هربًا من لقاء جيش التتار، وأخذ يتنقل من مدينة إلى أخرى حتى اخترق باكستان بالكامل، وأراد أن يعبر نهر السند ليصل إلى الهند لكنه لم يجد السفن لنقلهم إلى الضفة الأخرى، فطلبوا سفنًا من مكان بعيد وبينما هم ينتظرون طلع عليهم جيش جنكيزخان فلم يكن لديهم أي خيار؛ إلا القتال فالنهر من ورائهم، والتتار من أمامهم، ودارت معركة أشرس من كل المعارك الماضية، دامت ثلاثة أيام متواصلة، وفي اليوم الرابع انفصلت الجيوش لكثرة القتل، وليعيد كل طرف ترتيب أوراقه في تلك الأثناء وصلت السفن فما كان من جلال الدين؛ إلا أن قفز إلى السفينة هاربًا، ومعه خاصته ومقربوه ليعبروا نهر السند إلى بلاد الهند.

انزعج جنكيزخان لهروبه، فانقلب إلى بلاد المسلمين كالثور الهائج يُعمل فيها القتل والتخريب، ودخل المدينة الكبيرة عاصمة جلال الدين بن خوارزم، فقتل كل الرجال

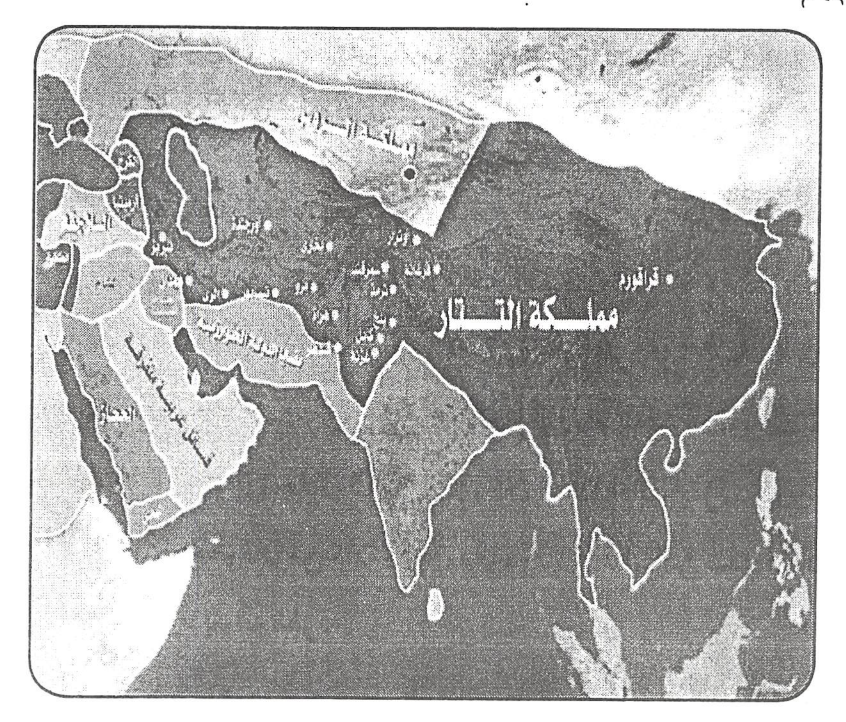
وسبى كل النساء، وأحرق كل الديار بلا استثناء، وأمسك بأطفال جلال الدين وأمر بذبحهم جميعًا.

درس معبر ... درس لا ينسى ابدًا ... درس من المفروض أن يؤخذ عبرة، وموعظة تدوم أبد الدهر، فيوم تجتمع الكلمة، وتتوحد الهمم والسواعد فلابد لشجرة هذا الاتحاد من أن تزهر، وتطرح ثمار القوة، والمهابة والمنعة، وتلك الثمار هي الركائز الأساسية التي تؤدي إلى النصر، وأما الفرقة والتشتت، والنزاعات، فقد رأينا بأم العين ما أورثت من ضعف، وذل، وهوان ... ولننظر إلى جلال الدين الذي كان لسان حاله، يقول: أنا ومن بعدي الطوفان ... لقد أغرق الطوفان من كان حوله بداية، وليس هناك من شك أن هذا الطوفان سيعلوه هو أيضًا، ولابد أنه مغرقه.

وفي ظلال هذا الضعف، والتشتت استطاع التتار بسنة واحدة (٦١٧هـ ـ ١٢٢٠م) أن ينطلقوا من الصين ليكتسحوا كازاخستان، وأوزبكستان، والتركمانستان، وأفغانستان، وإيران، وأذربيجان، وأرمينية، وجورجيا.

وفي سنة (٦١٨هـ ـ ١٢٢١م) دخل التتار مراغة ثم فكروا في غزو أربيل الواقعة شمال العراق، فصحا الخليفة العباسي الناصر لدين الله من نومه العميق، وحاول استنفار الناس لملاقاة التتار لكنه ـ ويا للأسف ـ كان صورة خليفة، ولم يكن قائدًا فعليًّا للأمة، فإنه لم يستطع أن يجمع ـ وبعد جهد ـ إلا ثمانمائة رجل فقط.

انسحب هذا الجيش الهزيل هاربًا عند قدوم التتار فاعتقد التتار أن هذا تكتيك حربي، وخدعة عسكرية إذ ليس من المعقول أن هذه الخلافة العظيمة ليس لديها إلا هذا العدد الضئيل، فلابد أن هذه الكتيبة هي طليعة الجيش فقط أو أنها طعم لاصطياد العدو لذلك قرر التتار التراجع، وعدم مهاجمة الخلافة.




توسيع مملكة التتار داخل العالم الإسلامي حتى سنة [٦٢٤هـ]

فلننظر إلى مدى هذا الضعف الذي آلت إليه تلك الخلافة بعد القوة والمنعة، والانتشار الواسع، والجيوش الجرارة ... لقد هرمت هذه الخلافة..! وانقضت أيام صباها وشبابها .. وكلنا يعرف المرحلة التي تأتي بعد الهرم .. نعم هذه سُنَّة الله في ملكوته.

مرت السنون، والجرائم التترية مستمرة، وإعصارهم يكتسح البلدان، ويقتلع الأخضر واليابس حتى جاءت سنة (٦٢٢هـ ـ ١٢٢٥م)، وفيها خفت قبضتهم، وتوقفوا عن متابعة الاجتياح لتنظيم أمور البلاد التي احتلوها فظهر من جديد جلال الدين بن خوارزم شاه الذي تحالف مع الأمير سعد الدين بن دكلا ضد أخيه غياث الدين بن خوارزم شاه، فحاربه في إقليم فارس حتى وصل إلى غرب إيران، وحين أصبح قريبًا من الخلافة العباسية وجد في نفسه القوة وفي الخلافة الضعف، فأعلن الحرب عليها ووصل إلى البصرة وحاصرها مدة شهرين ثم تركها واتجه شمالًا ليمر من جانب بغداد عاصمة

الخلافة العباسية حيث كان الخليفة الناصر لدين الله قد حصن بغداد، وجهز الجيش لدفع جلال الدين، وأرسل إلى التتار يستعين بهم على حرب جلال الدين لكنهم لم يجيبوه وذلك لانشغالهم ببسط سيطرتهم على المناطق التي احتلوها.

لابد لنا هنا من وقفة نتأمل فيها هذا الوضع المزري والمخجل الذي وصلت إليه تلك الخلافة الهرمة، وما آلت إليه من العجز، والخرف حتى طلبت النجدة من العدو ...! وأي عدو ..؟! عدو همجي متوحش لا يرعى إلًّا، ولا ذمة عرف عنه الغدر، والخداع، ونقض العهود، والمواثيق، فماذا يرجى من عدو هذه شيمه، وتلك سماته ..؟ هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لنتأمل ماذا فعل جلال الدين عندما هاجم أخاه وإخوانه، وأبناء جلدته ونسي أعداءه التتار الرازحين شرق إيران، وتركهم ينعمون بالأمن والأمان، وبسط السلطان ..!!!.

لابد أن بوصلته هو الآخر كانت معطلة ..! أو عنده نوع من الحول جعله يحارب الأخ، ويترك العدو ... تلك مهزلة وأية مهزلة ...!!!

بسط جلال الدين سيطرته على المناطق المحيطة ببغداد ثم شمال العراق. ثم منطقة فارس، ودخل في أذربيجان، وما حولها من أقاليم إسلامية، واصطلح أخيرًا مع أخيه غياث الدين صلحًا مؤقتًا فيه الكثير من الحذر.

وهكذا اتسعت الرقعة التي بسط جلال الدين سلطانه عليها، لكنها كانت مليئة بالقلاقل والفتن والاضطرابات مع أن العدو كان على الأبواب ومن الممكن أن يهاجمهم في أي وقت، فأين كانت العقول ..؟

في سنة(٦٢٤هـ-١٢٢٦م) مات جنكيز خان بعد أن أنشأ خلال فترة حكمه مملكة واسعة تمتد من كوريا في الشرق إلى فارس في الغرب أنشأها على جماجم البشر، وجثث العباد المخضبة بالدماء، وبموته هدأت الأمور نسبيًا، وكأن كل طرف رضي بما يملك.

**الاجتياح التتري الثاني:**

تولى قيادة التتار الخاقان أوكيتاي، فنظم مملكته، وقواته استعدادًا لاجتياح جديد في سنة (٦٢٧هـ-١٢٢٦م)، وكلف القائد التتري شورماجان بالقيادة فجمع جيشًا هائلًا وتقدم صوب العالم الإسلامي من جديد، وراح يكتسح مدنه اكتساحًا بشعًا، ومروعًا على الطريقة التترية الهمجية نفسها، فالتقى خلال تقدمه بجيش جلال الدين شاه الذي تغير حاله، ودب الضعف في جسد جيشه، ومملكته بعد القوة، فانهزم أمام التتار شر هزيمة، وتمزق جيشه وراح يفر بشخصه أمام التتار ليختفي عن أعينهم حتى قابله أحد الفلاحين الأكراد فعرفه، فأطعمه وانتظره حتى نام فقتله، وأخذ ما معه من الجواهر، وسلمها إلى شهاب الدين غازي صاحب المنطقة الذي طالما ذاق من عدوان جلال الدين، وهكذا دب الوهن، والخور والخوف في جسد الأمة الإسلامية، وماتت روح المقاومة، والجهاد ومنيت الأمة بهزيمة نفسية، ومعنوية قل نظيرها فقد روى ابن الأثير في أحداث سنة [ ٦٢٨ هـ] نقلًا عن بعض الناجين من الإجرام التتري قائلًا: «كان التتري يدخل القرية بمفرده، وبها الجمع الكثير من الناس فيبدأ بقتلهم واحدًا تلو الآخر، ولا يتجاسر أحد من المسلمين أن يرفع يده نحو الفارس بهجوم أو بدفاع».

وقال أيضًا: «ولقد بلغني أن إنسانًا منهم أخذ رجلًا، ولم يكن مع التتري ما يقتله به، فقال له: ضع رأسك على الأرض ولا تبرح، فوضع رأسه على الأرض، ومضى التتري فأحضر سيفًا وقتله به».

فلننظر إلى هذه الهزيمة النفسية الرهيبة، وإلى هذا الخوف الذي عشش في النفوس وأطاش العقول شيء لا يصدق .. يحاكي الخيال، ويماثل الأساطير لقد وجد التتار أرضًا منبسطة كالسهل، وأعناقًا ملوية جاهزة للقطع ..!! فصالوا بصلف وكبر، وجالوا دون رادع يردعهم ..أو قوة ترهبهم.

استطاع شورماجان السيطرة على إقليم فارس، وإقليم أذربيجان، وراح خلال خمس سنوات يرسخ حكمه في تلك المناطق، ومع ذلك لم تقم بوجهه أية ثورة، ولم يهاجمه أي جيش من الجيوش الإسلامية القريبة.

ثم انطلق بعدها ليبسط سيطرته على أقاليم أرمينية، والشيشان، وجورجيا وداغستان، في نفس الوقت أي في سنة (٦٣٥هـ ـ ١٢٣٧م) كان هناك جيش تتري آخر بقيادة باتو بن جاجي يكتسح مناطق شمال بحر قزوين، ويقوم بمذابح رهيبة جعلت المدن الروسية تتساقط الواحدة تلو الأخرى، ففي خلال عامين استطاع هذا الجيش من بسط سيطرته على كامل الأراضي الروسية رغم عدد سكانها الكبير، وأحوالها المناخية الصعبة، وفي عام (٦٣٨هـ ـ ١٢٤٠م) ضم أوكرانيا بالكامل واجتاح عاصمتها كييف فدمر كنوزها العظيمة، وأباد أكثر سكانها أما في سنة (٦٣٩هـ ـ ١٢٤١م)، فقد زحف جيش بقيادة (بايدر) على مملكة بولندا ودمر الكثير من المدن مما اضطر الملك البولندي أن يطلب المساعدة من الفرسان الألمان لكن بايدر استطاع أن يلحق بهم هزيمة ساحقة، بعدها اتجه جنوبًا فاجتاح سلوفاكيا ثم كرواتيا بعد أن اتحد مع الجيش التتري الآخر المتمركز في المجر تحت قيادة باتو بن جاجي الذي كان قد دمر الجيش المجري بالكامل إثر معركة رهيبة.

وبهذا يكون التتار قد ضموا حوالي نصف أوربا إلى سيطرتهم، وباتوا على أبواب دول النمسا، وإيطاليا، وألمانيا، في هذا الوقت مات الخاقان الكبير ملك التتار (أوكتاي) مما اضطر بايدر إلى وقف العمليات العسكرية، وتعيين نائب عنه والعودة إلى قراقورم عاصمة التتار لاختيار خاقان جديد.

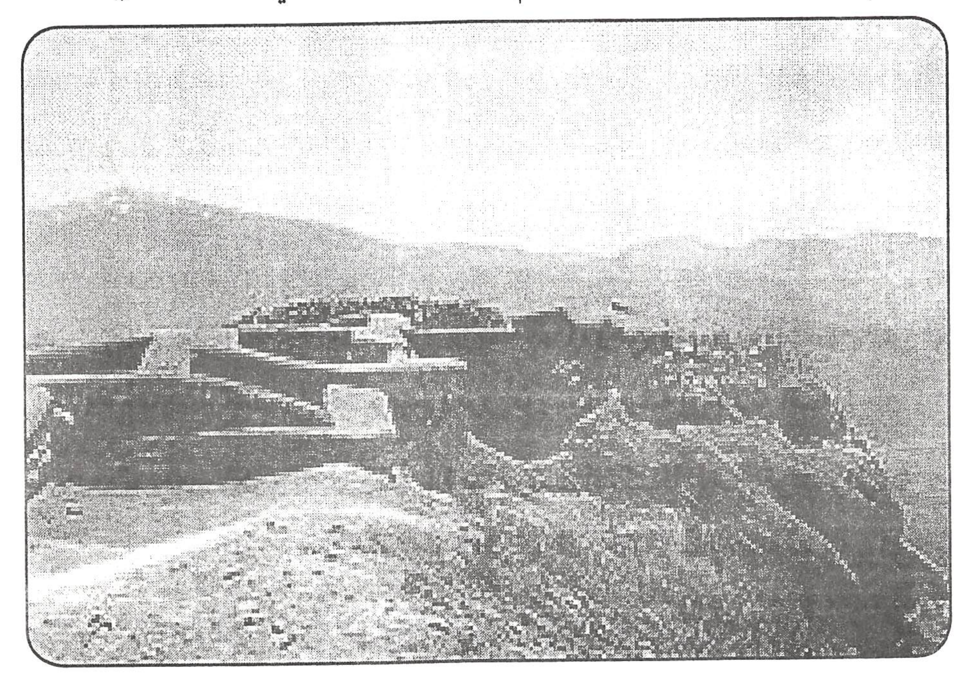
تولى كيوك بن أوكتاي الملك (٦٣٩هـ-١٢٤١م - ٦٤٦هـ - ١٢٤٨م)، وقرر أن يوقف الحملات التوسعية لتثبيت أقدام التتار في مختلف المناطق التي أصبحت تحت سيطرتهم، وهكذا ساد نوع من الهدوء النسبي في المناطق المجاورة لمملكة التتار.

في سنة (٦٤٠هـ-١٢٤٢م) توفي الخليفة العباسي المستنصر بالله، وتولى الخلافة ابنه المستعصم بالله الذي سقطت الخلافة في عهده، وفي سنة (٦٤٦هـ-١٢٤٨م) توفي خاقان التتار كيوك فتولت أرملته (أوغول قيميش) الملك لمدة ثلاث سنوات، وصاية على أبنائها؛ وذلك لصغر سنهم.

بعد ذلك اختار المجلس الوطني للتتار خاقانًا جديدًا وهو (منكو خان) الذي كان يشبه جنكيزخان بفكره القتالي، والتوسعي؛ لذلك فكر مباشرة بإسقاط الخلافة العباسية، فسلم إقليم فارس القريب من الخلافة العباسية إلى أخيه هولاكو سنة (٦٤٩هـ-١٢٥١م) الذي راح يعد العدة، وينظم البلاد مدة خمس سنوات، قام فيها بإصلاح الطرق الموصلة من الصين إلى العراق، وجلب أدوات حصار كبيرة من الصين، ويروى بأنه أنشأ تحالفًا مع وزير الخليفة العباسي مؤيد الدين ابن العلقمي الشيعي المذهب في أن يسهل للتتار دخول بغداد على أن يكون له شأن في الحكم بعد سقوط الخلافة، وذلك في أن يشير على الخليفة المستعصم بالله بالآراء الفاسدة، والاقتراحات المضللة كتخفيض ميزانية الجيش وتقليل عدد الجند وصرفهم من الخدمة.

حتى روي أنه شوهد العديد من هؤلاء الجند يتسولون على أبواب المساجد، وهكذا انخفض تعداد الجيش إلى حوالي عشرة آلاف فارس بعد أن كان أكثر من مائة ألف في أيام المستنصر بالله، وذلك بناء على نصائح ابن العلقمي الذي كان يقنع الخليفة المستعصم؛ بأنه يجب أن يظهر لهولاكو حسن النية، وبأنه رجل سلام، ولا يريد الحروب كما كان يحثه على إرسال الأموال، والهدايا إلى هولاكو لشراء مودته واسترضائه.

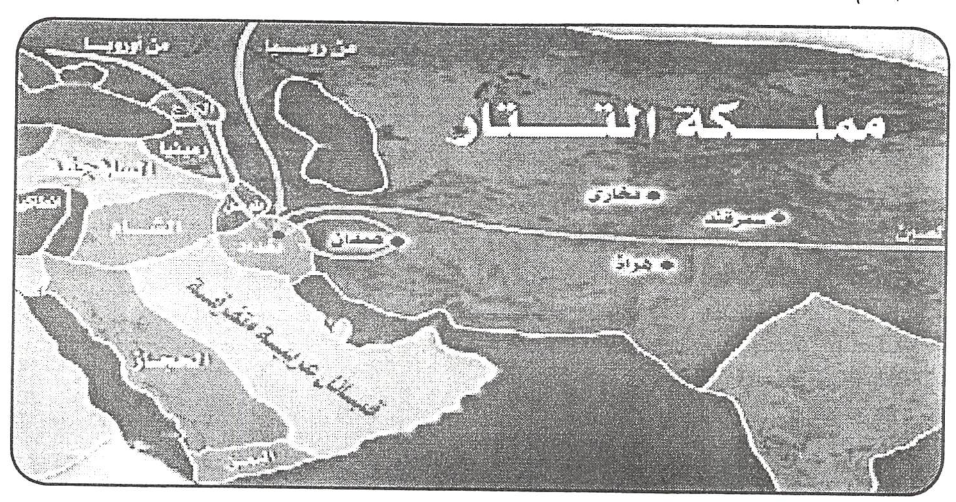
قبل غزو بغداد صدرت الأوامر من قراقورم العاصمة بالقضاء على طائفة الإسماعيلية (الحشاشين) التي تتمركز في الجبال غرب فارس وشرق العراق في قلعة ألموت، وذلك لشعور التتار بأن هذه الطائفة من الممكن أن تشكل خطرًا على مسرح العمليات، كذلك انتقامًا لثأر قديم، وهو قتل الطائفة لأحد أبناء جنكيز خان (جغتاي)، وهكذا تم خلال سنة (٦٥٥هـ-١٢٥٧م) إبادة هذه الطائفة في هذه المنطقة إبادة تامة.



أطلال قلعة ألموت قاعدة الحشاشين

**سقوط بغداد:**

بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وتعداد سكانها - حينما سقطت سنة [١٢٥٨م] أكثر من مليون نسمة. رأى التتار بأن الفرصة أصبحت مناسبة لإزالة هذه الخلافة التي كانوا يقدرون قوتها بأكثر مما كانت عليه في الحقيقة، وكأنهم قد فاتهم أن يرقبوا الجرذان التي أكلت جذور تلك الخلافة، والسوس الذي نخر جذعها، وأن دفعة بسيطة لهذا الجذع سوف يهوي ويؤدي إلى انهيار تلك الدولة التي أخذ منها الهرم كل مأخذ.




لذلك وبعد أن قام هولاكو بكافة الاستعدادات، واستقدام أفضل أدوات الحصار، والتدمير من الصين عقد في مدينة همدان (في إيران حاليًا)، وهي تقع على مسافة [٤٥٠] كيلو مترًا من بغداد، عقد أهم مجلس حرب، وقرر أن يقسم جيشه إلى ثلاثة أقسام:

القلب، ويقوده هولاكو بنفسه، والميسرة ستكون بقيادة كتبغا أفضل قواده والميمنة ستكون بقيادة بيجو قائد الجيش الرابض على أطراف الأناضول سارت هذه الجيوش الضخمة باتجاه بغداد، ولم تتعرض إلى أي هجوم أو إزعاج خلال مسيرتها داخل الأراضي الإسلامية كذلك لم يصل للخليفة أي نبأ عن تحركها؛ إلا بعد أن أصبحت على بعد (خمسين كيلومترًا)، وهذا مما يدل أن الخلافة ميتة، وليست غافلة أو نائمة، وهكذا تم وصول الجيوش، وحصار بغداد، ويروى أنه تم العديد من المراسلات بين الخليفة المستعصم بالله وبين هولاكو كان هولاكو يطالب بالتسليم، وتهديم حصون بغداد وردم خنادقها، وإلقاء السلاح والخليفة يرفض، ويحذر المغول بأنهم سيواجهون الغضب الرباني إن هم هاجموا الخلافة.

أشار الوزير مؤيد الدين بن العلقمي ـ الذي اتهمه المؤرخون بالخيانة، والعمالة للتتار ـ على الخليفة بالتسليم، لكن مجاهد الدين أيبك أشار على الخليفة أنه من الذل والعار التسليم، وأنه لابد من الجهاد والتصدي للغزاة بالإمكانيات المتوفرة، وانصاع الخليفة لهذا الرأي. لكن هنا لابد لنا من وقفة كي نتلمس أفكار هذا الخليفة وكيف كان يعيش، وما هي استعداداته لهذا اللقاء.

يذكر ابن كثير في (البداية والنهاية) موقفًا يبين لنا وضع الخليفة، ويجيب عما تساءلنا عنه، فيقول: «وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كل جانب حتى أصيبت جارية كانت تلعب بين يدي الخليفة، وتضحكه، وكانت من جملة حظاياه وكانت تسمى عرفة، جاءها سهم من بعض الشبابيك، فقتلها وهي ترقص بين يدي الخليفة، فانزعج الخليفة من ذلك، وفزع الخليفة فزعًا شديدًا، وأحضر السهم بين يديه، فإذا مكتوب عليه: «إذا أراد الله إنفاذ قضائه، وقدره أذهب من ذوي العقول عقولهم»، فأمر الخليفة عند ذلك بزيادة الاحتراز، وكُثِّرت الستائر على دار الخلافة !!!!.

ويذكر الهمذاني في كتابه (تاريخ هولاكو): أن هولاكو أمر بعدِّ حريم الخليفة فوجدوهم (٧٠٠ زوجة وسُرِّية و١٠٠٠ خادمة ...!!!).

للأسف نستطيع أن نقول: إنه هكذا كان استعداد الخليفة للدفاع عن بغداد، وعن الخلافة سهرة أنس لاهية، وجيش من الزوجات والسريات، والخادمات، وعقل منفصل عن الواقع غير مقدِّر للأمور حق التقدير .. فالعدو على الأبواب، والموت قد وصل إلى سهرته اللاهية، ومع ذلك تصرف كالنعامة دفن رأسه في الرمال كي لا يرى شيئًا، فأين العقل، وأين القيادة الحكيمة، وأين الإحساس بالمسؤولية ..؟! .

نعود إلى مجاهد الدين أيبك الذي لم يستطع جمع إلا قوة عسكرية هزيلة ـ وصفها ابن كثير بـ (القلة ونهاية الذلة) ـ ووصف لنا صاحب الفخري عن صديقه فلك الدين

إبن آيدمر المبارزات الأولى مع جيش التتار بقوله: «كنت في عسكر الدويدار الصغير لما خرج إلى لقاء التتر بالجانب الغربي من مدينة السلام في واقعتها العظمى سنة (ست وخمسين وستمائة)، قال: فالتقينا بنهر بشير من أعمال دجيل، فكان الفارس منا يخرج إلى المبارزة، وتحته فرس عربي، وعليه سلاح تام كأنه وفرسه الجبل العظيم. ثم يخرج إليه من المغول فارس تحته فرس كأنه حمار، وفي يده رمح كأنه المغزل، وليس عليه كسوة ولا سلاح، فيضحك منه كل من رآه. ثم ما تم النهار حتى كانت لهم الكرة، فكسرونا كسرة عظيمة كانت مفتاح الشر. ثم كان من الأمر ما كان».

لقد أبيد ذلك الجيش الهزيل تقريبًا عن آخره لدى الصدام الأول مع التتار على الضفة الغربية لدجلة بعدما فتح التتار سدًّا على دجلة أغرق قسمًا كبيرًا من الجيش العباسي، وهجم التتار على الباقي فكان مجموع القتلى والغرقى حوالي [١٢٠٠٠] مقاتل، وقلائل هم الذين استطاعوا الفرار والنجاة بأنفسهم، ومن بينهم مجاهد الدين أيبك.

أطبق التتار الحصار على بغداد وظلوا يقصفونها أربعة أيام - في أول (صفر سنة ٦٥٦هـ ـ ٢٩كانون الثاني١٢٥٨م) ـ بالقذائف المدمرة، والحارقة فبدأت الأسوار الشرقية بالانهيار، وانهار معها الخليفة، وخارت عزائمه فاستشار وزيره ابن العلقمي عما يفعل فأشار عليه ثانية بالخروج إلى هولاكو والتفاوض معه، وراحت الرسل بذلك رحب هولاكو لكنه اشترط أن يكون الوفد مؤلفًا من كبار رجال الدولة ووزرائها وفقهائها، وأمراء الناس، والأعيان بالإضافة إلى الخليفة كي يحضر الجميع المفاوضات.

استجاب الخليفة الضعيف لهذا المطلب، وجمع رجال دولته، ومتنفذيها فكان العدد كبيرًا حيث بلغ حوالي السبعمائة شخص، وخرج من قصره الذي كان يستقبل الوفود به وكان أجداده يقودون العالم منه خرج ذليلًا مهينًا ليتجه إلى خيمة غازٍ همجي لا يرعى إلًّا، ولا ذمة، وصل الوفد إلى الخيمة فسُمح للخليفة وسبعة عشر رجلًا معه في الدخول

على هولاكو بينما قيل: للآخرين؛ بأنه يجب خضوعهم للتفتيش الدقيق .. دخل الخليفة وأُخذ الباقي ليس للتفتيش بل إلى القتل ...!! لقد قتلوا جميعًا ..!!! قتل الوزراء والعلماء وأعيان البلد، وأصحاب الرأي ..!!

وراح هولاكو يصدر الأوامر باستعلاء وتكبر، فأمر الخليفة بأن يصدر أوامره إلى أهل بغداد بإلقاء أسلحتهم، والامتناع عن أي مقاومة مع العلم أن معظم سكان المدينة لا يستطيعون حمل السلاح، ولا يرغبون في ذلك أصلًا، وكان يستدعي بعض الرجال بعينهم من داخل بغداد وهؤلاء هم من العلماء، والفقهاء فكان الرجل منهم يخرج ومعه أولاده، ونساؤه إلى مكان عينه التتار بجوار المقابر فيذبح العالم كما تذبح الشياه، وتؤخذ بقية العائلة إما للسبي أو للقتل .. ثم قام هولاكو بقتل ولدي الخليفة أمام عينيه وأسر الثالث، هو وأخوات الخليفة الثلاث: (فاطمة وخديجة ومريم ..).

وبعد أن ألقى أهل المدينة السلاح أصدر هولاكو أوامره إلى جنده باستباحة بغداد، وذلك (في١٤ شباط ١٢٥٨)، وهذا الأمر يعني أن لهذا الجيش التتري حرية فعل ما يشاء في هذه المدينة المقهورة .. يقتل .. يدمر .. يسبي .. يحرق .. يغتصب .. نعم هكذا انطلقت الوحوش الضارية، وهجمت على الفريسة المستباحة تلك الفريسة التي كانت تحمل مشعل النور، والحضارة إلى العالم أجمع لتعلمه معنى الحق، والخير والعدل والإنسانية.

نعم لقد وقعت بغداد بين مخالب، وبراثن الهمجية التترية فمَزَّقت جسدها شر ممزق، وفُعل في المدينة ما لا يتخيله عقل لقد راح التتار يتتبعون المسلمين في كل مكان، في كل بيت ومسجد وشارع وزقاق، يُعملون بالناس القتل فيهرب الناس من وجوههم يدخلون دورهم ويغلقون عليهم الأبواب، فيحرق التتار الأبواب، ويدخلون كالذئاب الجائعة، فيهرب المسلم إلى السطح فيتبعونه ويقتلونه فتسيل الميازيب سائلًا أحمر .. إنه دماء المسلمين الذين لا حول لهم ولا قوة، ولم يقتصر قتلهم للرجال الأقوياء فقط، وإنما

كانوا يقتلون كل من يجدون من شيوخ وكهول، وأطفال وحتى الرُّضَّع لم يشفقوا عليهم أما النساء فكانوا يقتلونهن أيضًا؛ إلا من استحسنوا منهن، فإنهم كانوا يأخذونهن سبيًا. ولم ينج من القتل، إلا من استطاع الاختباء في الآبار أو مصارف المياه أو الأنفاق أو المداخن أو الأماكن التي لم يخطر ببال التتار تفتيشها. أما الأسرة، والوسائد المصنوعة من الذهب والملبسة بالجواهر فقد قطعت بالسكاكين إلى أجزاء وقطع صغيرة.

والآن تعالوا لنُقيِّم معًا عملًا قام به أحد الجنود التتار عندما وجد أربعين طفلًا حديثي الولادة في شارع جانبي، وقد قُتلت أمهاتهم، فماذا فعل هذا الجندي من أجلهم يا ترى ..؟ لقد قتلهم جميعًا ـ على حد قوله ـ شفقة ورحمة ..!!! أجل قتلهم جميعًا بلا استثناء ..!!.

لنتأمل معًا، ونسأل أهناك حِسٌّ أروع من ذلك الإحساس الإنساني المرهف لذاك الجندي ..؟!!! أهناك عمل أنبل وأشرف من هذا العمل الذي قام به ذاك التتري ..؟!! قلوب كالحجارة .. بل هي أشد قسوة..!.

لم يشفقوا على أحد، ولم يستثنوا أحدًا حتى أنهم كانوا يعترضون، ويقتلون وبشكل عشوائي الأهالي المسالمين الذين حاولوا الفرار بعيدًا عن بغداد.

في الحقيقة لم يقتصر إجرام التتار على البشر بل لقد طال كل شيء المساجد، والقصور والمستشفيات، والأبنية الكبيرة التي كانت تستخدم لأجيال، وتشكل رمزًا للتقدم، والحضارة فنهبت وأحرقت ثم سويت بالأرض، لقد دخلوا بيت الحكمة الذي كان يحتوي على كم هائل من الكتب التاريخية، والأدبية والوثائق العلمية التي تحتوي علوم الطب، والفلك، وسائر العلوم الأخرى التي كانت من نتاج عقول المسلمين خلال تلك الفترة الطويلة من الحكم.

لقد حُملت تلك الكتب جميعها، وألقيت في نهر دجلة، فصبغت مياهه بلون حبرها الأسود .. ولقد قيل: إن الفارس كان يستطيع الانتقال من ضفة إلى أخرى فوق تلك الكتب.

كل هذا يحصل، والخليفة مكبل بالقيود يرى ويشاهد ما حل بخلافته، ومدينته ورجاله وأهله، فمن المؤكد أنه كان يبكي بدل الدموع دمًا على ما فرَّط، واستهتر في سبيل حماية بلده بعد أن استهان في أن يعد العدة لمثل هذا اليوم بل على الأغلب أنه لم يفكر يومًا بأن الحق لابد له من قوة تحميه .. وسيق الخليفة كما تساق الشاة إلى دار الخلافة ليدل على أماكن الذهب، والمجوهرات، والنفائس، وبعد ذلك أمر هولاكو بقتله قتلة غريبة تحمل كل معاني الإهانة، والاحتقار، والمذلة أمر بقتله رفسًا بالأقدام .. نعم هكذا أجمع أغلب المؤرخين، ويا لها من قتلة شنيعة ..!!! ذهبت بكل أيام العز، والرفاه، والأنس والمتعة التي عاشها.

وهكذا انتهت حياة هذا الخليفة الضعيف الذي كان آخر الخلفاء العباسيين الذين سادوا العالم لمدة زادت على خمسة قرون .. لقد سقطت بغداد بيد التتار واستمرت المذبحة مدة أربعين يومًا تحصد فيه كل شيء .. قتل خلالها التتار حوالي ألف ألف إنسان .. مليون إنسان ..!! شيء لا يصدق، ويفوق الخيال ..!! لقد تحولت بغداد الحضارة إلى ركام، تفوح منها رائحة الموت المشبع بالخزي، والعار .. نعم لقد صُرعت بغدادِ ..!! سقطت عاصمة الخلافة .. سقطت، وبهذا الشكل المخزي، والمروع، مما زرع الخوف، والحزن، والألم في قلوب الأمة الإسلامية جميعًا.

وهذا ما عبر عنه ابن الأثير بقوله: «يا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل هذا، وكنت نسيًا منسيًّا».

وبعد أربعين يومًا من الجنون المطبق أحس التتار بشيء من الري بعد أن ولغوا في دماء المسلمين، ورووا شيئًا من تعطشهم الظامئ أبدًا للدماء، فأصدر هولاكو أمره

بالكف عن القتل .. فوصف ابن كثير تلك الفترة بقوله: «ولما نودي ببغداد بالأمان خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير، والقنى، والمقابر كأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم، وقد أنكر بعضهم بعضًا، فلا يعرف الوالد ولده، ولا الأخ أخاه، وأخذهم الوباء الشديد، فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى».

وهكذا أصبح حال بغداد وحال أهلها .. لقد بكاها الكثيرون، ورثاها العديد من الشعراء من بينهم تقي الدين إسماعيل التنوخي في مرثية نقتطف منها الأبيات التالية:

لسائل الدمع عن بغداد اخبار ... فما وقوفك والأحباب قد ساروا
يا زائرين إلى الزوراء لا تفدوا ... فما بذاك الحمى والدار ديار
تاج الخلافة والربع الذي شرفت ... به المعالم قد عفاه إقفار
اضحى لعطف البلى في ربعه اثر ... وللدموع على الآثار آثار

***ما بعد سقوط بغداد:***

لقد سقطت بغداد .. وكان لسقوطها أثر كبير على مستقبل الأمة الإسلامية كلها، فلقد أصيبت الأمة بهزيمة نفسية شنيعة إذ أصبح جيش التتار بالنسبة للجميع الجيش الذي لا يقهر، وهذا مما أدى إلى هرولة العديد من الزعماء والأمراء لأداء فروض الطاعة، والولاء للتتار أمثال:

- أمير الموصل بدر الدين لؤلؤ ..
- الأمير قلج أرسلان الرابع، والأمير كيكاوس الثاني، أميري وسط وغرب تركيا.
- الأمير الأشرف الأيوبي أمير حمص.
- الأمير الناصر يوسف (حفيد صلاح الدين الأيوبي) أمير حلب ودمشق.

وبهذا رأى قادة التتار أن الطرق باتت مفتوحة أمام الجيش المغولي -دون مشقة قتال- إلى أرض الشام وتركيا ومعظم شمال العراق. ولم يقف في وجههم إلا الأمير

الكامل محمد الأيوبي أمير ميافارقين (مدينة تقع في شرق تركيا إلى الغرب من بحيرة وان) الذي يسيطر على الشمال الغربي من العراق. لم يرض هذا الأمير أن يحني رأسه، ويخضع لأولئك الغزاة المعتدين، ولم يرض أن يؤدي لهم فروض الطاعة والولاء مما اضطر هولاكو لإرسال ابنه أشموط لقتاله، فحاصر ميافارقين وضيق عليها، فاستبسل أهلها في الدفاع والمقاومة، وأرسل الأمير الكامل إلى أمراء المسلمين يطلب منهم العون والنجدة فلم يجبه منهم أحد بل للأسف كان بعضهم يقاتل مع هولاكو ضده.

وبعد ثمانية عشر شهرًا من الحصار سقطت المدينة .. فقَتَل أشموط جميع سكانها ودمَّر بيوتهم وأحرقها. ثم اقتاد الأمير الكامل إلى أبيه هولاكو، وهو في حصار مدينة حلب، وهنا يتجسد الحقد المغولي، والانتقام البشع والوحشية التي ما بعدها وحشية .. لقد قام هولاكو بتقييد الأمير ثم أخذ يقطع أطرافه وهو حي، بل إنه أجبره أن يأكل من لحمه، وظل تحت هذا التعذيب المغولي إلى أن فاضت روحه رَحِمَهُ اللَّهُ.

هؤلاء هم المغول ... وهذه هي حروبهم التي تمثل قمة الحضارة وقمة الإنسانية ...!! فهل هناك إنسانية أرقى، وأعلى ولو درجة واحدة من تلك الإنسانية السمحة التي تحلوا بها..؟!!! لقد سطروا بهذه الأعمال أسطرًا مخزية من الحقد، والضغينة، والكراهية والإجرام قلَّ من ينافسهم فيها حتى أعتى عتاة البربرية في هذا العالم.

في تلك الأثناء سقطت حلب .. إثر خديعةٍ، ووعد بأمان زائف، ففتح الأهالي أبواب المدينة لهولاكو لكنه نكث بوعده، وأبادهم إبادة تامة، وفكر في السير إلى حماة لكنه فوجئ بوفد من أهلها يحملون إليه مفاتيحها فقبل منهم ذلك، وأعطاهم هذه المرة أمانًا حقيقيًا ليشجع باقي المدن أن تحذو حذو حماه، وبالفعل لقد حمل أهل دمشق أيضًا مفاتيحها إلى هولاكو بعد أن هرب أميرها الناصر يوسف ... نعم لقد سلمت تلك المدن مفاتيحها، وذلك بعد أن دقت طبول الخوف والرعب في قلوب ساكنيها بدلًا من طبول

الحرب، وهذا ما جعل الغرور يشمخ بالأنف المغولي صلفًا، وكبرًا، واستهانة. في تلك الأثناء مات زعيم التتار (منكوخان) مما اضطر هولاكو إلى ترك بلاد الشام، وتسليم قيادة الجيش إلى أفضل القواد لديه (كتبغا نوين)، والارتحال باتجاه قراقورم طمعًا في تسنم القيادة فيها لكنه عندما وصل إلى بلاد فارس وصلته الأخبار بأن أخاه (قوبيلاي) قد أصبح هو الخاقان الأعظم شعر هولاكو بالإحباط لكنه رضي بالأمر الواقع وأقام في تبريز (في إيران حاليًا)، وجعلها عاصمة ملكه يدير منها ما وقع تحت يده من ممالك ودول وخاصة بعد أن شاهد ما فيها من خير وفير واعتدال في الطقس ...

أما القائد كتبغا بعد أن أمسك بزمام الأمور في دمشق تطلع إلى فلسطين، ومصر علمًا بأن الشريط الساحلي لبلاد الشام كان بيد الصليبيين، ولم يحصل بين الغازيين أية حروب أو نزاعات؛ لذلك كانت الأمة الإسلامية في بلاد الشام في أسوأ حال لها إذ كانت واقعة تحت سندان الصليبيين، ومطرقة التتار في آن واحد، وجه كتبغا فرقة من جيشه احتلت نابلس ثم غزة وتطلع بعد ذلك لاحتلال مصر ...

***الوضع في مصر:***

كانت مصر في ذلك الوقت تحت حكم المماليك، وكان الوضع السياسي فيه شيء من الفوضى، فلقد قتل عز الدين أيبك ومن بعده قتلت زوجته شجرة الدر، وتولى الحكم السلطان الطفل نور الدين علي بن عز الدين أيبك تحت ولاية سيف الدين قطز إضافة إلى ذلك كانت هناك ثورات المماليك البحرية، وأطماع الأيوبيين الشاميين، واقتراب التتار وأطماع الصليبيين هذا الجو العام بالنسبة لمصر، وهذا الوضع هو الذي دفع سيف الدين قطز إلى عزل السلطان الطفل، واعتلاء عرش مصر بنفسه لمجابهة الأخطار المحدقة بمصر وذلك بعد أن أقنع كبار القادة والعلماء، وأصحاب الرأي بأنه غير طامع في الحكم وأن ما فعله هو للاجتماع على قتال التتار فقط، وأنه حين الانتهاء من قتال التتار فلهم الخيار في

تولية من يشاؤون على عرش مصر حدث هذا سنة (٦٥٧هـ ـ ١٢٥٩م) أي قبل وصول هولاكو إلى حلب بأيام، ومنذ ذلك الوقت راح قطز يعد العدة بحماس لملاقاة التتار.

***التهديد المغولي لمصر ورد الفعل المصري:***

أتى أربعة رسل من التتار يحملون رسالة تقطر سمًّا مليئة بصلف التتار، وعجرفتهم وعنجهيتهم البربرية أقتطف منها أسطرًا قليلة تنبينا عن موضوعها:

«إنَّا جند الله في أرضه خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حلَّ بنا غيظه فلكم بجميع الأنصار معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وسلموا لنا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء، ويعود عليكم الخطأ، فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرق لمن اشتكى، فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد، فعليكم بالهرب، وعلينا بالطلب ... فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من أيدينا مناص فخيولنا سوابق وسيوفنا صواعق، ورماحنا خوارق ... فلا تطيلوا الخطاب، وأسرعوا برد الجواب قبل أن تضرم الحرب نارها وتوري شرارها، فلا تجدون منا جاهًا، ولا عزًّا، ولا كتابًا، ولا حرزًا إذا أزَّتكم رماحنا أزًّا، وتدهون منا بأعظم داهية، وتصبح بلادكم منكم خاوية، فقد أنصفناكم إذ أرسلنا إليكم، ومننا برسلنا عليكم».

هذا جزء صغير من الرسالة التي مُلئت بالتهديد، والوعيد، ونصت على خيارين لا ثالث لهما: إما الحرب، وإما التسليم المذل، والمهانة التي ما بعدها مهانة، فما كان من قطز إلا أن جمع مجلسًا استشاريًّا لمناقشة هذه القضية العظيمة، واستطاع قطز أن يؤثر بالجميع، ويثير عواطفهم لاتخاذ قرار الحرب، وخاصة عندما بكى أمام الجمع، وقال: «يا أمراء المسلمين مَن للإسلام إن لم نكن نحن ...».

لقد بكى وأبكى الجميع .. فأعلنوا موافقتهم على الجهاد، وصد هجوم التتار عن البلاد فما كان من قطز، إلا أن أسرع إلى استشارة مجلسه العسكري لينال موافقتهم على

قتل الرسل الأربعة ليكون الرد على التتار قاسيًا كرسالتهم المتعالية، وليطمئن شعبه أيضًا، بأنه لا يهاب التتار ولا ينصاع لتهديداتهم، وهكذا تم قتل الرسل وتعليق رؤوسهم على باب زويلة في القاهرة.

بعد أن جهز قطز جيشه كما يجب أن يجهز دارت بينه وبين الأمراء نقاشات مطولة حول خطة قطز التي ترمي إلى الخروج بالجيش، ولقاء التتار على أرض فلسطين بينما كان رأي أغلب الأمراء هو الانتظار في مصر، والتحصن بها؛ فإن أتى التتار حاربوهم وصدوا العدوان عن بلدهم، وإن لم يأتوا فيكونوا قد كُفوا شر القتال، ومشقة التنقل والترحال. لكن قطز أصر على الخروج ولو لوحده فانصاع عندئذ لرأيه بقية الأمراء.

وكان التحرك أوائل شهر (شعبان ٦٥٨هـ ـ الموافق لتموز ١٢٦٠م)، وهذا الشهر من أشد شهور السنة حرًّا لكن الجيش صبر على الحر، والعطش، واجتاز صحراء سيناء القاحلة، وكان على مقدمة هذا الجيش القائد العسكري البارع ركن الدين بيبرس الذي رصدته عيون التتار، ونقلت الأخبار إلى الحامية التترية في غزة التي سارعت لقتال الجيش المسلم ظنًّا منها بأن هذا هو الجيش بكامله، بينما كان جيش قطز الرئيسي مازال يعبر الحدود الفلسطينية المصرية.

استطاع بيبرس من الانتصار على تلك الحامية التي قتل بعض جنودها، وفرالباقون في اتجاه الشمال لينقلوا أخبار الهزيمة إلى كتبغا الرابض بجيشه في سهل البقاع في لبنان. غضب كتبغا غضبًا شديدًا، وانطلق بجيشه لملاقاة الجيش المصري الذي اتخذ من سهل عين جالوت مربضًا له.

ذلك السهل الذي رآه قطز مناسبًا ليكون مسرحًا للمعركة المرتقبة، فهو سهل منبسط تحيط به التلال المتوسطة الارتفاع المليئة بالأشجار والأحراش من كل الجوانب

ما عدا جانبه الشمالي فهو مفتوح، وهذه التضاريس تؤمِّن مخبأ مناسبًا للكمائن، والإغارة على الجيش المعادي.

**معركة عين جالوت:**

مع شروق شمس يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان سنة (٦٥٨هـ - ١٢٦٠م) أطل الجيش التتري الضخم على سهل عين جالوت من الجهة الشمالية كان السهل فارغًا؛ وذلك لأن جيش قطز كان مختبئًا خلف التلال، أشار قطز إلى مقدمة الجيش لأن تنزل إلى باب السهل. الشمالي لملاقاة التتار،




فانسابت كتائب تلك المقدمة فقط بقيادة قائدها المحنك ركن الدين بيبرس إلى السهل، وكل كتيبة بلباس زاه مختلف عن لون الكتيبة الأخرى فاندهش كتبغا من هذا التنظيم الرائع لتلك الكتائب لكنه استقل عددهم وأراد أن يحسم المعركة بسرعة فأعطى الإشارة إلى جيشه بالكامل؛ بأن يدخل المعركة. كذلك دقت الفرقة الموسيقية المملوكية إشارة البدء فارتطم الجيشان ارتطامًا مهولًا، ودارت معركة حامية الوطيس، وثبت

بيبرس ومن معه رغم قلة عددهم أمام جحافل التتار ثباتًا رائعًا كان هذا هو الجزء الأول من الخطة الإسلامية. ثم دقت الفرقة الموسيقية لحنًا آخر كان يفيد بتنفيذ الجزء الثاني من الخطة، وهذا يعني بدء تراجع بيبرس بجيشه تدريجيًّا ليتيح للتتار دخول سهل عين جالوت، ويا حبذا لو يدخل الجيش التتري بالكامل.

وهذا ما حصل بالفعل بدأ بيبرس يظهر الانهزام، وبدأ بالتراجع التدريجي وهذا ما دفع التتار إلى الضغط بقوة أكبر ، ودخلوا السهل بكاملهم وهم يندفعون لإبادة جيش بيبرس المتقهقر، وبهذا يكون قد نجح الجزء الثاني من الخطة نجاحًا باهرًا، في تلك الأثناء عزفت الفرقة الموسيقية لحنًا جديدًا معلنة عن بدء الجزء الثالث من الخطة، فظهرت الكتائب الإسلامية العظيمة من خلف التلال، ونزلت السهل، وأسرعت إحدى الفرق القوية لتسد المدخل الشمالي من السهل، وهكذا يكونون قد أحاطوا بالتتار كما يحيط السوار بالمعصم اكتشف كتبغا الخطة متأخرًا، وعرف بأنه وقع في الفخ، ولكن بعد فوات الأوان .

حمي وطيس المعركة وكادت ميمنة التتار أن تخترق ميسرة الجيش الإسلامي، ولو استطاع التتار اختراقها لحاصروا المسلمين ولتوازنت الكفتان، وقد يصبح إغلاق السهل خطرًا على المسلمين. لم يجد قطز إلا حلًّا واحدًا فًصاح صيحته الشهيرة: «واإسلاماه ... واإسلاماه ... وألقى بنفسه في ساحة المعركة، ورآه جنوده فزادهم حماسة وقوة، وقاتل قطز قتالًا عظيمًا، حاول أحد التتار قتله فرماه بسهم لكنه أخطأه، وأصاب حصانه فقتله، فترجل قطز وقاتل ماشيًا غير متردد، ولا هياب من الموت، وأراد الله أن يكتب النصر لهؤلاء المقاتلين الصادقين، فبدأت الكفة تميل لصالحهم، وأطبق المسلمون الدائرة تدريجيًّا على التتار، وقام الأمير المملوكي جمال الدين آقوش الشمس البارع في القتال بشق الصفوف باتجاه قائد الجيش المغولي كتبغا إلى أن وصل إليه، وضرب عنقه بالسيف

ضربة أسقطت رأسه على الأرض، فخارت عزائم التتار ودب الرعب في قلوبهم، ولم يعد لهم من هم إلا فتح ثغرة في المدخل الشمالي، والهرب وانطلق المسلمون خلف التتار يقتلون فريقًا، ويأسرون آخر إلى أن استطاع التتار فتح تلك الثغرة، وولوا الأدبار باتجاه بيسان ـ الذي يبعد حوالي عشرين كيلو مترًا من عين جالوت ـ حيث أعادوا تجمعهم وتنظيم صفوفهم، واصطدموا ثانية بالجيش المسلم الذي كان يلاحقهم، ودارت معركة وصفت بأنها أعنف من الأولى، وكاد النصر أن يحالف التتار عندئذ انطلق قطز يحفز جيشه، ويدعوهم للثبات.

وأطلق صيحته ثانية: (وإسلاماه ... وإسلاماه ... وإسلاماه .. وتضرع إلى الله قائلاً: يا الله .. انصر عبدك قطز على التتار)، وكتب الله للجيش المسلم النصر، وتهاوى التتار على أرض بيسان صرعى حتى أبيدوا عن آخرهم، ولم يبق منهم من ينفخ النار.

وهكذا فنيت قوة التتار العسكرية في منطقة بلاد الشام، وتركيا ولم يُرَوا في المنطقة إلا بعد أكثر من (مائة وأربعين عامًا) عندما دخل التتري تيمورلنك بلاد الشام (٨٠٤هـ ـ ١٤٠٢م)، وذلك بعد أن اجتاح بلاد العالم الإسلامي الشرقية.

وهكذا تحطمت في عين جالوت أسطورة هذا الجيش الذي لا يقهر هذا الجيش المعتدي الذي روَّع الآمنين، وسيطر على حوالي نصف الكرة الأرضية قد أبيد اليوم تمامًا.

لقد سقطت هيبة التتار وزال جدار الخوف من نفوس الناس، فقام أهل دمشق بالثورة على الحامية التترية، فقتلوا منهم من قتلوه وأسروا من أسروه، وفر منهم من استطاع الفرار، وحين وصل جيش قطز إلى دمشق استقبل استقبال الفاتحين، وعلقت الزينات في الشوارع، وعمت الأفراح، وعلت الزغاريد.

لم يترك قطز للتتار وقتًا لالتقاط أنفاسهم لذا قام بإرسال مقدمة جيشه بقيادة بيبرس يتتبع الفارين منهم، ويهاجم الحاميات التترية، وما هي إلا أسابيع قليلة حتى تحررت بلاد الشام من ربقة هذا الكابوس المروع.

نعم لقد انتهت أسطورة هذا الجيش الذي أرهب القلوب، وأبكى العيون، وفتت الأكباد، وعاث في الأرض فسادًا لقد فعل من الجرائم ما لم يفعله أحد مثله لقد قتل الملايين من البشر دون تفريق بين طفل صغير وشيخ كبير، وامرأة لا حول لها ولا قوة لقد دمر، وأحرق المدن، وحتى الكتب والمكتبات التي تحوي عصائر الفكر الإنساني، وتحمل التراث الفكري الذي نهض، وينهض بالحضارة الإنسانية، ويسير بها في طريق الرقي، والتقدم قد أتلفها ودمرها، وكأن بينه وبينها عداوة مزمنة غير آبه بها وغير مقدر لقيمتها كالحمار يحمل أسفارًا .. نعم لقد انتهت تلك الأسطورة، وحصد هذا الجيش ما زرع .. لقد زرع الموت، واليوم حصده لقد أُبيد كما أباد .. وفني كما أفنى..

وهذا ما يدعونا إلى الإجابة عن السؤال الذي طرحناه في بداية البحث ألا وهو:

هل ساهم التتار بما قاموا به في إضافة لبنة جديدة إلى بناء الصرح الحضاري التراكمي للبشرية ..؟

أقول: إنه حتى العيون السقيمة تستطيع أن ترى أن تلك الأعمال التي قام بها أولئك التتار هي أعمال بشعة هدامة، وأنهم بتصرفاتهم الوحشية تلك كانوا يقوضون الجدار الحضاري الذي بنته الإنسانية لبنة لبنة، ولم يكن عندهم أية لبنة ليضيفوها، بل لقد كانت الحضارة الإنسانية في واد وهم في واد آخر، لقد كان تفكيرهم محصورًا في الحصول على الذهب، والثروات، وسلكوا في سبيل ذلك كافة السبل، ولم يعيروا الوسيلة أو الطريقة التي يحصلون بها عليه أية أهمية مهما كانت درجة وحشيتها، وبشاعتها فغايتهم تلك جعلتهم يتصرفون بغريزة بهيمية خالصة، فلمعان الذهب الذي كانوا ينشدون أعمى

بصرهم وبصيرتهم مما جعلهم لا يعيرون اهتمامًا لسواه فراحوا يدوسون بحوافر خيولهم كل ما هو مجيد وتليد جريًا وراء ذلك الذهب المنشود لقد انطلقوا كالمجانين تؤزهم قوة هوجاء شكلت إعصارًا رهيبًا مدمرًا عصف، ودمر كل الذين وقفوا في وجهه.

**وهنا نستطيع ان نقول:** إن القوة التي لا تحكمها الأخلاق، ولا ترسم دربها المبادئ الإنسانية تكون قوة مخيفة مدمرة، وقد يفوق تدميرها الزلازل، والبراكين؛ لذا يجدر بنا أن نأخذ العبرة، والموعظة بعد أن رأينا بأم العين كيف أن تلك القوة التي شكلت ذلك الإعصار الرهيب، والذي فعل ما فعل ... هاهي في النهاية قد تلاشت، وتحطمت كما تتلاشى موجة على شاطئ صخري صلد..

**نستطيع ختامًا ان نقول:** إن هؤلاء التتار لم يتركوا إلا بصمات الدم، والدمار، وإنهم في النهاية دُمروا كما دَمروا، ولم تغنهم القوة شيئًا، فليس بعد القوة إلا الضعف، وليس هناك قوي، إلا وهناك من هو أقوى منه .. لقد أنفقوا حياتهم في قتال عبثي أورثهم في النهاية الخزي، والعار، فهم لم يقدموا للإنسانية شيئًا؛ لأنهم هم بالأصل لا يملكون شيئًا لقد كانوا في حالة خواء فكري، وثقافي وديني، لذلك رأينا أن الكثيرين منهم قد تأثروا بالدول التي اجتاحوها بعدما احتكوا بشعوبها فمنهم من اعتنق المسيحية، ومنهم من اعتنق الإسلام ليملؤوا ذاك الخواء الذي كانوا يعيشون به ..

**اخيرًا نستطيع ان نقول:** إنه عندما تسمو النفس الإنسانية، وتحمل أفكارًا سامية، فإنها ولابد سترفع عن استعباد العباد، وتحجم عن إراقة الدماء، وتحاول إعمار الكون بما أمكن لها من قوة، وتعلي دائمًا من شأن هذا الإنسان ليبقى دائمًا في المكان الذي أحبه الله له.

**المراجع:**

- ابن الأثير، الكامل في التاريخ.

- ابن كثير، البداية والنهاية.
- المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك.
- د. راغب السرجاني، قصة التتار (اقتباسًا، ومرجعًا).
- د. فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ.



## ٩- [١٣٢سنة] من الظلم الجزائر

لقد كتب على الأمم الضعيفة أن يكون همها الدائم، وشغلها الشاغل، هو الدفاع، والكفاح، والمقاومة، وخوض الحروب، وتسخير كل الطاقات للحفاظ على وجودها، واستمرارية حياتها، والذب عن كرامتها .. بينما تعيش الدول القوية برفاهية، وتخمة، وراحة بال، وهي تمتص ـ كالعلق ـ دماء، ومقدرات الشعوب والأمم الضعيفة تلك الأمم التي كلما حاولت النهوض، وسلوك سبيل المنعة، والقوة، والازدهار، زُرعت في دربها الألغام، والمطبات والحفر، حتى تبقى دائمًا ضعيفة ذليلة، تقوم بدور العبد الضعيف المنفذ لأوامر السيد القوي.

لكن هل تستكين تلك الأمم، وترضخ لسلطة القوي أم أنها تثور مطالبة بحريتها وحقوقها المنهوبة ..؟ أقول إن الإنسان قد فطر على حب الحرية وعشقها، ونفوره من العبودية وذلها؛ لذلك كثيرًا ما رأينا أجيالًا تتوارث حمل رايات الكفاح، والنضال، سنوات طوالًا مليئة بالدماء، والدموع والآهات والعبرات، تسفح بسخاء من أجل نيل الحرية، وانتزاعها من يد الغاصبين.

الدول كالأفراد، فكما أن هناك إنسانًا طماعًا، كذلك هناك دول جشعة طماعة، يهمها أن تستأثر بكل شيء، وتأخذ لنفسها كل شيء، ولو على حساب لقمة عيش آخرين وسعادة آخرين، بل وحياة آخرين ، وهي تتشدق بكلمات جوفاء براقة عن الديمقراطية وحقوق الإنسان، بينما شعارها المطبق على أرض الواقع بكل قحة ووقاحة وأنانية هو: (أنا .. أنا ومن بعدي الطوفان ...مصالحي أولًا .. وليذهب غيري إلى الجحيم) .

هذه الأنانية المفرطة تكلف البشرية الكثير الكثير من المعاناة، والعذاب، والدمار وهدر الدماء، والكرامة الإنسانية، هذه الأنانية تشعرك بأن الإنسان في الدول التي

تتمتع بالقوة اليوم يختلف فيسيولوجيًا، وعرقيًا عن الإنسان في الدول الضعيفة، وأنه قد خلق وكوِّنَ من جوهر سام يختلف عن التراب الوضيع الذي خُلقت منه باقي البشرية، فالإنسان الغربي هو (السوبرمان)، وما عداه العبد المطيع الذي يشبه الحمار الذي يحمل أسفارًا .. فالغربي يقرأ والشرقي يحمل .. معادلة هزلية جائرة لا تقيم وزنًا للإنسان، ولا للإنسانية، فالتاريخ قد علمنا أن دولابه دائم الحركة والدوران، وكل الأمم تتموضع عليه فتراه يرتقي بأمة من الأمم ويرفعها حتى تصل إلى أعلاه إلى القمة في كل شيء، اجتماعيًا، واقتصاديًا، وعسكريًا، وحضاريًا، أي: تصل إلى قمة قوتها، وهيمنتها لكن بعد ذلك لابد لدولاب التاريخ من أن يبدأ بالهبوط بها، ليوصلها إلى دركه الأسفل، فكما قيل: لكل شيء إذا ما تم نقصان، وبهبوط هذه الأمة تكون أمة أخرى غيرها قد اعتلت قمة الدولاب، وهكذا دواليك .. أمة صاعدة، وأمة هابطة، وأمة تنتظر دورها بين بين .. ولكلٍّ دوره على مسرح الكرة الأرضية يمثله. ثم يترك الخشبة ليقوم الآخر بدوره.

***احتلال فرنسا للجزائر نموذجا:***

الجزائر كانت تتبع اسميًا للدولة العثمانية، التي كان دولابها قد بدأ يهبط بها نحو الأسفل، وبدأت بالترجل عن مسرح القيادة، وهذا ما بدا واضحًا في معركة (نافارين)، [سنة ١٨٢٧]، التي وقعت بين الأسطول العثماني مدعمًا بالأسطول المصري، والأسطول الجزائري من جهة، وأساطيل الحلفاء (بريطانيا، وفرنسا، وروسيا) من جهة أخرى، في خليج نافارين، وانتهت بهزيمة العثمانيين هزيمة كبيرة.

كانت تلك بداية النهاية للدولة العثمانية حيث تم يومها تدمير الأسطول الجزائري تدميرًا شبه كامل، إذ لم ينج منه سوى خمس سفن.

أجل لقد فقدت الجزائر قوتها البحرية التي سيطرت بها على البحر المتوسط لمدة ثلاثة قرون.

اغتنمت الدول الأوربية ضعف الدولة العثمانية (الرجل المريض) ، لتنفيذ مشروعها الاستعماري، ولتتقاسمها (وصايةً، أو حمايةً، أو انتدابًا، أو استعمارًا)، وكان من نصيب الجزائر الاستعمار.

ذات يوم جاء القنصل الفرنسي (دوفال) إلى قصر (الداي حسين)، فطالبه (الداي) بدفع ديون فرنسا المقدرة بـ[٢٠ مليون فرنك ذهبي]، في ذلك الوقت، والتي قدمت لها على شكل قروض مالية، ومواد غذائية، خاصة خلال المجاعة التي اجتاحت فرنسا بعد ثورة [١٧٨٩] فرد القنصل بطريقة غير لائقة إذ قال: «إن حكومتي لا تتنازل لإجابة رجل مثلكم، مما دعا (الداي) إلى طرده، والتلويح له بمروحة كانت في يده، فبعث الملك (شارل العاشر)، ملك فرنسا، جيشًا من ميناء (تولون) الفرنسي قوامه [٤٠ ألف جندي] بحجة استرجاع مكانة، وشرف فرنسا، كان هذا هو السبب المعلن، بينما كانت الدوافع الحقيقية، والخفية تتمثل في موقع الجزائر الجغرافي ـ ثرواتها الغزيرة ـ الخزائن الملأى ـ دوافع تنصير الشمال الأفريقي، وإدخال ما اصطلح عليه فيما بعد بينابيع الحضارة، والتقدم إلى البلاد البربرية».

وسنرى هذه الحضارة، وهذا التقدم الذي قدمته فرنسا على لسان العديد من ضباطها الذين قادوا الحملات، وشاركوا بها ضد الشعب الجزائري الأعزل، (في ١٤ حزيران ١٨٣٠)، وصلت الحملة الفرنسية إلى شاطئ (سيدي فرج) الذي لا يبعد عن مدينة الجزائر العاصمة؛ إلا نحو [٢٥ كيلو مترًا]، وقوبلت بالمقاومة منذ اللحظات الأولى، وهذا ما سأتكلم عنه فيما بعد. لقد اكتسح الفرنسيون الأراضي الجزائرية، وعاثوا فيها فسادًا، ودمارًا حيث ارتكب جيش الاحتلال العديد من الجرائم ضد المدنيين، والتي سماها المؤرخون بالرازيا (Razzias)، و(تعني الهجوم العنيف بهدف السلب والنهب، والحصول على غنائم)، وهي لا تهدف إلى معاقبة المخطئين، وإنما صارت مصدرًا لتمويل

الجيش الفرنسي كان كل ما ينهب يباع، ويوزع ثمنه على الضباط، والجنود، يقول: (دوكرو): (إن ما نهب في رازيا، واحدة يبلغ حمولة ٢٠٠٠ بغل).

لقد كان هناك تدمير منهجي، ومنظم يقوم به جنرالات فرنسا لقد كانوا يقومون بحرق كل شيء، وتدمير كل شيء، ويفتخرون، ويعدون ذلك مجدًا لفرنسا، وسأنقل لكم روايات بعض ضباطهم عما قاموا به وجنودهم من أعمال يندى لها جبين البشرية.

يقول الجنرال (شانغارنييه): «إن هذا يتم تحت القيادة المباشرة لـ(بوجو) الذي راح جنوده يذبحون اثنتي عشرة امرأة عجوزًا بلا دفاع في مدينة الجزائر ١٨ أكتوبر ١٨٤١).

ويروي العقيد (مونتانياك)، قوله: «أخبرني بعض الجنود أن ضباطهم يلحون عليهم ألا يتركوا أحدًا حيًّا من العرب .. كل العسكريين الذين تشرفت بقيادتهم يخافون إذا أحضروا عربيًّا حيًّا أن يجلدوا».

ويقول أيضًا: «لقد محا الجنرال (لاموريسيير) من الوجود (خمسة وعشرين قرية) في خرجة واحدة .. إنه عمل أكثر انعدامًا للإنسانية».

ويقول (مونتانياك): «فبمجرد أن حُدد موقع القبيلة، انطلق سائر الجنود نحوه، ووصلنا الخيام التي صحا أهلها على اقتراب الجنود، فخرجوا هاربين نساء، وأطفالًا، ورجالًا مع قطعان ماشيتهم في سائر الاتجاهات. هذا جندي يقتل نعجة بعض الجنود يدخلون الخيام، ويخرجون منها حاملين زرابي على أكتافهم بعضهم يحمل دجاجة تضرم النار في كل شيء يلاحق الناس، والحيوانات وسط صراخ وثغاء، وخوار .. إنها ضجة تصم الآذان ـ مدينة (معسكر يوم ١٩ ديسمبر ١٨٤١)» .

ويضيف (مونتانياك): (النساء، والأطفال اللاجئون إلى أعشاب كثيفة يسلمون أنفسهم لنا نقتل نذبح صراخ الضحايا، واللاقطين لأنفاسهم الأخيرة يختلط بأصوات

الحيوانات التي ترغي، وتخور كل هذا آت من كل الاتجاهات إنه الجحيم بعينه وسط أكداس من الثلج (٣١مارس١٨٤٢) .. (إن كل ذلك في هذه العمليات التي قمنا بها خلال (أربعة أشهر) تثير الشفقة حتى في الصخور إذا كان عندنا وقت للشفقة، وكنا نتعامل معها بلا مبالاة جافة تثير الرجفة في الأبدان (معسكر ٣١ مارس١٨٤٢)».

ويروي كذلك قائلًا: «إن الجنرال (لاموريسيير) يهاجم العرب، ويأخذ منهم كل شيء نساء، وأطفالًا، ومواشيَ يخطف النساء يحتفظ ببعضهن رهائن، والبعض الآخر يستبدلهن بالخيول، والباقي يبعن في المزاد كالحيوانات أما الجميلات منهن فنصيب الضباط ـ (معسكر ٣١ مارس ١٨٤٣)».

ويروي الجنرال (لاموريسيير) بنفسه قوله: «انحدرت إلى (حميدة) كنت أحرق كل شيء في طريقي لقد دمرت هذه القرية الجميلة .. أكداس من الجثث لاصقة الجثة مع الأخرى مات أصحابها مجمدين بالليل .. إنه شعب بني مناصر .. إنهم هم الذين أحرقت قراهم، وسقتهم أمامي (٢٨فبراير١٨٤٣)»

وكما يروي الضابط المراسل (تارنو) في روايات متعددة قوله: «إننا ندمر نحرق ننهب، نخرب البيوت، ونحرق الشجر المثمر (٥يونيو ١٨٤١) .. إن بلاد (بني مناصر) رائعة لقد أحرقنا كل شيء، ودمرنا كل شيء .. آه من الحرب .. كم من نساء، وأطفال هربوا منا إلى ثلوج الأطلس .. ماتوا بالبرد، والجوع (١٧أبريل١٨٤٢) .. أنا على رأس جيشي أحرق الدواوير، والأكواخ ، ونفرغ المطامير من الحبوب .. ونرسل لمراكزنا في (مليانة) القمح والشعير (٥ أكتوبر١٨٤٢)» .

ويقول الجنرال (كانروبير): «ينفذ جنودنا هذا التدمير بحماس ... إن التأثير الكارثي لهذا العمل البربري، والتخريب العميق للأخلاق، الذي يبث في قلوب جنودنا، وهم يذبحون، ويغتصبون، وينهب كل واحد منهم لصالحه الشخصي (١٨يوليو١٨٤٥)».

ويقول النقيب (لافاي): «لقد أحرقنا قرى لقبيلة (بني سنوس) .. لم يتراجع جنودنا أمام قتل العجائز، والنساء، والأطفال ... إن أكثر الأعمال وحشية هو أن النساء يقتلن بعد أن يغتصبن، وكان هؤلاء العرب لا يملكون شيئًا يدافعون به عن أنفسهم (٢٣ديسمبر ١٨٤٨)» .

ويضيف قائلًا: «كان الضباط يخيرون الفلاحين بين أن يقدموا لهم الأكل أو الإبادة كنا نخيم قرب القرية يعطيهم الجنرال مهلة لإعداد الطعام أو الموت كنا نوجه سلاحنا نحو القرية، وننتظر ثم نراهم يتوجهون لنا ببيضهم الطازج، وخرافهم السمينة ودجاجاتهم الجميلة، وبعسلهم الحلو المذاق (تلمسان ١٧يوليو ١٨٤٨)».

هذا غيض من فيض من الجرائم التي ارتكبت على أرض الجزائر الطاهرة، ناهيك عن السياسة التي انتهجتها فرنسا إزاء الشعب الجزائري، وتتمثل في محاولة مسخ الهوية الجزائرية، وطمسها، ومحاربة اللغة العربية، وجعل اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية في البلد، واتباع سياسة تبشيرية تهدف إلى القضاء على معتقده الديني أخذًا بمقولة كنيسة أفريقيا الرومانية: «إن العرب لا يطيعون فرنسا إلا إذا أصبحوا فرنسيين، ولن يصبحوا فرنسيين إلا إذا أصبحوا مسيحيين. لقد اعتدوا على المساجد، والزوايا، فدمروا بعضها، وحولوا بعضها إلى كنائس كما فعلوا في مسجد (كتشاوة)، إذ قاموا بقتل أربعة آلاف مسلم أعزل معتصم داخل المسجد وحولوه إلى كنيسة (ما أجمل هذا التدين ..!!!).

ناهيك عن مصادرة الأوقاف الإسلامية، وانتهاج سياسة التفقير، والتجهيل، والتهجير، واحتكار الأسواق، وسرقة ونهب الثروات، ونقلها إلى فرنسا.

وهذا ما أدى إلى انتشار الأوبئة، والمجاعات، والأمراض الفتاكة التي قضت على مئات الآلاف من السكان.

ولقد قال النائب البرلماني الفرنسي (طوكوفيل) واصفًا حربهم تلك بقوله: «إننا نقوم بحرب أكثر بربرية من العرب أنفسهم .. لم يستطع الفرنسيون هزم العرب حربيًّا، فهزموهم بالتدمير، والجوع» .

بينما وفرت فرنسا للمستوطنين الجدد، القادمين من فرنسا وسائر أوربا، كل سبل العيش، والرفاهية، حتى وصل تعدادهم، في نهاية (القرن التاسع عشر)، إلى مليون مستوطن؛ وذلك بغية تدعيم التواجد الأوربي، للقضاء على الشخصية الوطنية، وتدعيم التواجد العسكري، ومحاربة العقيدة الإسلامية، ومحاولة التنصير، كذلك تشجيع الهجرة اليهودية وقانون (كريميو) خير دليل على ذلك، [سنة ١٨٧٠].

**المقاومة والثورات ضد المحتل:**

بدأت المقاومة الجزائرية مع نزول الغازي إلى الأرض الجزائرية، فدارت معركة طاحنة على أبواب مدينة الجزائر، استبسل فيها الجزائريون، وقدموا تضحيات جسيمة؛ لكن القوة غلبت الشجاعة انتصر الفرنسيون، واستطاعوا دخول الجزائر العاصمة في (٥ تموز سنة ١٨٣٠)، فاضطر (الداي) إلى الاستسلام، وترك مدينة الجزائر، والاتجاه إلى مصر، حيث نزل بالإسكندرية، وهكذا تابع الفرنسيون زحفهم، فاصطدموا بمقاومات عديدة، لكنهم في النهاية احتلوا كامل الجزائر.

اشتعلت ثورات كثيرة كانت أقواها تلك الثورة التي أعلنها الأمير (عبد القادر الجزائري سنة ١٨٣٢)، في الغرب واستمرت خمسة عشر عامًا، حيث استخدم الجنرال الفرنسي (بيجو)، وقواته، التي وصل تعدادها إلى [١٢٠ ألف] جندي، حرب إبادة ضد البشر، والحيوانات، والمزارع، فوقع الذعر في قلوب الناس، فاضطر الأمير (عبد القادر) إلى الاستسلام (سنة ١٨٤٧)، وهناك أيضًا ثورة (أحمد باي ابن محمد الشريف)، في الشرق، و(فاطمة نسومر) في القبائل، في الحقيقة، الثورات لم تهدأ، ولكنها كانت ثورات

متفرقة لم تكن منسقة، ولا منظمة، وغير شاملة، فكلما خبت ثورة اشتعلت أخرى، وفي منطقة أخرى، وعمومًا، لقد خف وهج الثورات بعد ثورة (أحمد بومرزاق سنة ١٨٧٢)، وقلّت، بسبب وحشية الفرنسيين المفرطة، واتباعهم سياسة الإبادة الهمجية؛ لتصفية المقاومة، وبسبب فقدان الشعب لقياداته، التي استشهدت، أو نفيت إلى الخارج، كذلك بسبب سياسة الإفقار، والإذلال التي طبقت بغير رحمة، ولا شفقة على بقية الشعب.

عندما قارب القرن العشرون على الانتصاف، اشتعلت الحرب العالمية الثانية، ودارت رحاها، فجُند الكثير من الجزائريين تجنيدًا إجباريا للدفاع عن فرنسا، وليكونوا عونًا لها في حربها، ولم تمض سوى أشهر قليلة حتى انهارت فرنسا أمام ألمانيا، وبدا للجزائريين أن قوة فرنسا لم تكن إلا عليهم، وأن هيبتها لم تكن إلا في القلوب المستضعفة. فراح الجزائريون يطالبون بالاستقلال، وحق تقرير المصير.

انطلقت المظاهرات (في ٨ مايو سنة ١٩٤٥)، في عدد من المدن الجزائرية، وقامت بإحراق العلم الفرنسي، فلم يكن من المستعمر إلا أن عاملهم معاملة الخراف المعدة للذبح، فارتكب مجزرة مذهلة سقط فيها [٤٥ ألف] شهيد جزائري خلال ثماني ساعات .. فتجلت مبادئ حقوق الإنسان التي أقرتها، واعتمدتها الثورة الفرنسية [عام ١٧٨٩] بأبهى صورها، وحمدت الخراف ربها أنها لم تكن من بني الإنسان، وتنال تلك الحقوق الإنسانية التي نالها الجزائريون .. لكن هذه المجزرة الرهيبة، كانت حافزًا للجزائريين، وتحولًا كبيرًا في أسلوب مقارعتهم للمستعمر إذ أدركوا أنه لابد من العمل المسلح، والثورة الشاملة المنظمة، وأن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، فانصب الجهد على التنظيم، والتسليح بدعم، وتمويل عربي (مصري - سوري - عراقي، وبعض دول العالم الثالث) فراحت تعد الخلايا السرية الثورية، حتى يحين الوقت المناسب لتفجير الثورة.

**ثورة التحرير الجزائرية:**

في (١ نوفمبر ١٩٥٤ المصادف لعيد القديسين في فرنسا)، تقرر إشعال فتيل الثورة التحريرية، وصدر نداء عن اللجنة الثورية، دعا إلى استقلال الجزائر، واسترجاع السيادة الوطنية، وإنشاء دولة ديمقراطية اجتماعية، في إطار المبادئ الإسلامية، وتم إنشاء (جبهة التحرير الوطني)، وجناحها العسكري، المتمثل في (جيش التحرير الوطني)، كانت بداية الثورة بمشاركة [١٢٠٠ مجاهد]، بحوزتهم [٤٠٠ قطعة سلاح]، وبضع قنابل تقليدية فقط، وقد استهدفت الهجمات مراكز الدرك (الشرطة)، والثكنات العسكرية، ومخازن الأسلحة، ومصالح استراتيجية أخرى، بالإضافة إلى الممتلكات، التي استحوذ عليها المستوطنون، لقد كان تعداد هذه الهجمات، التي تقررت في ليلة (أول نوفمبر ١٩٥٤)، قد بلغت ثلاثين عملية خلفت (١٠ قتلى أوربيين، وجرح ٢٣) منهم وخسائر مادية، تقدر بمئات الملايين من الفرنكات الفرنسية، كذلك فقدت الثورة عددًا من خيرة أبنائها.

وهكذا بدأت حرب التحرير الشعبية، بين الثوار والجيش الفرنسي، حيث استخدم الثوار حرب العصابات بصفتها الوسيلة الناجعة، لمحاربة جيش نظامي قوي مجهز تجهيزًا كبيرًا خصوصًا أن الثوار لم يكونوا يملكون سوى تسليح خفيف، وبسيط، لا يضاهي الآلة العسكرية الفرنسية في شيء، لكنهم استطاعوا أن يملكوا تأييد الشعب الجزائري الكامل، بل والجالية الجزائرية في المهجر، خاصة في فرنسا.

كما أن هذه الثورة قد حظيت باحتضان مصري، وتمويل ودعم كبير، فقد صدر مثلًا قرار من الرئيس المصري جمال عبد الناصر بتخصيص الدخول الأولى من تأميم قناة السويس للثورة الجزائرية (بلغت هذه الدخول ٣ مليارات فرنك فرنسي قديم) كذلك كانت أول صفقة سلاح من أوربا الشرقية، بتمويل مصري بلغ حوالي مليون دولار، كما قدمت مصر [٧٥٪ ] من الأموال التي كانت تقدمها جامعة الدول العربية للثورة الجزائرية، والمقدرة بـ[١٢ مليون] جنيه سنويًا.

كان رد الفرنسيين على تلك الهجمات التمردية للثوار، هو الحرب وإرسال قوات المظليين، ذوي القبعات الحمر من فرنسا، التي قامت بارتكاب أبشع الأعمال الإجرامية والدموية ضد الشعب الجزائري، فدمرت قرى بكاملها، ومارست الإبادة الجماعية، والتعذيب البشع؛ لكن هذا كله لم يرهب جيش التحرير الجزائري، الذي راح يشتد عوده، ويزداد تعداده حتى فاق (المئة وعشرين ألفًا)، وأنشأ مدارس عسكرية، بل إن عملياته الحربية امتدت حتى إلى الأراضي الفرنسية، حيث تم تدمير مستودعات بترولية ضخمة في فرنسا، ولقد خاض هذا الجيش معارك عنيفة ضد الجيش الفرنسي، واعتمد خطة توزيع القوات على جميع المناطق، من أجل إضعاف قوات العدو المهاجمة واستنزافها، فجن جنون الفرنسيين، فبالغوا في القمع البوليسي، وفرضوا على الأهالي معسكرات الاعتقال الجماعي، في مختلف المناطق، وحاولوا حسم القضية الجزائرية عسكريًا، لكنهم لم يفلحوا، وتكبدوا خسائر فادحة، ومنيت حملاتهم الضخمة بالفشل الذريع، فاضطرت فرنسا ـ أخيرًا ـ إلى القبول بوقف القتال (في ١٩ آذار سنة ١٩٦٢)، بين الطرفين، وتحديد الأول من تموز لإجراء استفتاء شعبي، فصوت الجزائريون، (بنسبة٩٧,٣٪)، لصالح الاستقلال، بعد كفاح مسلح، وعمل سياسي داما (سبع سنوات ونصف السنة)، وتلا إعلان الاستقلال الجنرال (شارل ديغول) عبر التلفزيون مخاطبًا الشعب الفرنسي. وخرجت ـ أخيرًا ـ القوات الفرنسية من الجزائر، وللمصادفة في مثل اليوم الذي دخلت به، وهو (٥ تموز لكن في عام ١٩٦٢، وذلك بعد ١٣٢ عامًا) من الاستعمار .. وتم تعيين (أحمد بن بيلا) كأول رئيس لجمهورية الجزائر المستقلة ، بعد خروجه من السجون الفرنسية، مع عدد من قادة الثورة وكوادرها.

نعم .. لقد خرج المستعمر الباغي، مطرودًا مدحورًا، لكن بعد أن مارس وحشية، لا تدانيها وحشية، بما قتل وعذّب، ونكل .. فقد كانت حصيلة ما قتله من الشعب الجزائري

المناضل مليونًا، ونصف المليون من الشهداء .. لنتصور معًا هذا العدد الهائل من الشهداء ..!!! مليونًا ونصف المليون ..!!! شيء لا يصدق .. مليونًا ونصف المليون من البشر ...!!! ولم أستطع معرفة أعداد الجرحى، والمعاقين الذين فقدوا أجزاء من أجسادهم جرَّاء تلك الحرب المجنونة، ومن أجل ماذا زهقت كل تلك الأرواح الإنسانية؟!.. ولِمَ شوِّه الذين شُوِّهوا ..؟! من أجل تلويح بمروحة .. أم من أجل تنصير، يقال: إنه يحمل المحبة ..؟ وهل هذه هي المحبة التي يدَّعون ..؟!!، وهل المحبة في قاموسهم، هي سفك كل هذه الدماء البريئة .. وتيتيم تلك الملايين من الأطفال، الذين لا حول لهم ولا قوة، وفجع آلاف الأمهات بأبنائهن .. وتفتيت أكبادهن من الحسرات والآهات، وترميل آلاف الزوجات، وتفجير أنهار من الدموع ذرفت، وحفرت مجاريَ لها على خدود الثكالى والأيامى .. هكذا إذن هي المحبة التي أرادوا نشرها ..!!! يا لها من محبة ..!!!

الحقيقة حصل ما حصل، من أجل الأطماع، ونهب الثروات لقد أفقروا شعبًا، وجوَّعوه .. وجهَّلوه .. واستعبدوه .. ليعيشوا هم على مقدراته، وثرواته كالطفيليات، فهل هذه هي حقوق الإنسان التي أقرتها ثورتهم الفرنسية التي يتغنون بها وبمبادئها .. أم أن الإنسان لديهم هو الإنسان الأوربي فقط، وما عداه خراف معدة للذبح ..؟؟!!.

تعالوا لنتفق، في أي وقت تشاؤون، على تعريف كلمة إنسان .. ولنحاول جاهدين تحقيق إنسانية ذلك الإنسان لينال حقوقه بالفعل، وليس بالكلام .. فحريٌّ أن يعيش الإنسان كإنسان أينما كان ..

# فهرس



